كتاب الهلال

سلسلة ثقافية شهرية

السفر على جواد الشعر

فتحي سعيد



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن ((دار الهلال))

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير: عايد عباد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٦٢٥٤٥٠ « سبعة خطوط »

KITAB ALHILAL

العدد ٤٤٤ - ربيع الثانى - ديسمبر ١٩٨٧

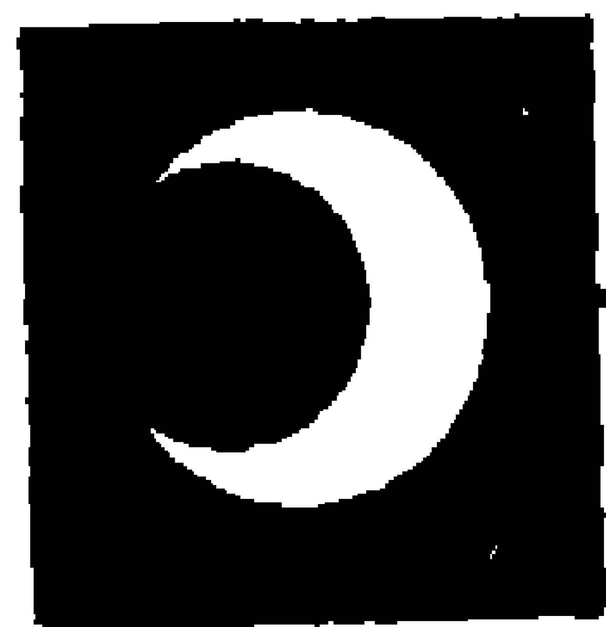
No . 444 DECEMBER 1987

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنانة
سميحة حسنين

السفر

على جواد الشعر

بقلم:

فتحي سعيد

دار الهلال

تقديم

لولا جواد الشعر لما حملتني رياح السفر والغربة الى بعيد او قريب ! ولولا الشعر مارأيت صحراء بلادى ونجوعها وقراها وسواحلها وثغورها وبسطاء واديها .

ولولا الشعر مارأيت بساتين الشام وغوطة دمشق وارز لبنان وجبال الالب والبحيرات . وتلال عمان وأوراس الجزائر وابو رقراق المغرب وربوع تونس ونخلات العراق وما عبرت تحت قناطر ارسطو وربوع الاغريق وبوابات روما واقواس باريس وابراج لندن ونوافير مدريد وجبال مكدونيا الخضراء .. ولولا الشعر ما تنسمت ضفاف السين والتايمز والدانوب والتنيز والادرياتيك ونهر دريم الاسود ومروج البلقان الشاسعة وعبق الغابات والحدائق ..

كان الشعر جواز السفر والعبور فى رحلة الاغتراب والطواف داخل جدران بلادى وخارجها ..

وكان السفر زادا جديد المذاق يضاف الى مائدة الشعر ليثمر ثمرة شوك قرنفلية فى حدائق التجوال يرطب اريجها المر قيظ الرحلة ولهب المشوار الطويل .

تخلفت كثيرا عن مهرجان العاصمة لاتسكع كثيرا فى مهرجانات الشعر والسفر .

كنت انزوى بعيدا فى مقعد قطار ليلى او ركن سيارة او على ظهر قارب او متن دابة فى شواظ الظهيرة او

فوق ساقى أقطع الاميال تلو الأميال فى سفر وترحال أفقد العناوين وتفقدنى العناوين ولكن لا أضل الطريق ..

تصرعنى ضربات الشمس فى وقد الصيف الريفى المصرى فى أعماق الصعيد فارتمى بظل شجرة جميز وارفة وفى سمعى دوان يردد قول الشاعر القديم وكأننى أتبين معناه للوهلة الاولى :

يا عمرو الا تدع سبى ومنقصتى
أضربك ... حتى تقول الهامة اسقونى

والهامة هى ، جماع الرأس .. تهتف ظمأى حتى يؤخذ بثأرها فتجد شبعا وريا وتكف عن الصراخ وطلب السقيا .

وتجمدنى جمرات الصقيع الجليدية فى ثلاجات اوربا الشتائية فأتمثل قول الشاعر بعد التعديل :

بلادى وان جارت على « دفيئــة »
وأهلى وآن ضنوا على كــــرام

وكما ركبت القطارات والدواب والسيارات الى السلوم وابو قرقاص وملوى وابنوب ورشيد وابو المطامير واسيوط والمنيا ونجع حمادى وأبو تيج وأسوان وسواحل الثغور والواحات وأطراف الصحراء ...

وكما شاهدت آثار بنى حسن والاشمونين والعمارنة والعرابة والكرنك وأبو سمبل وانس الوجود ومقــــابر العلميين والحلفاية والقطارة والنطرون واضرحة الاوليـاء والقديسين وآبار موط الفرعونية ومقابر البجوات وآثار القصر بأطراف الوادى الجديد .

ركبت الطائرات الى عواصم أوربا وشاهدت اللوفر ومهد الاولمب ومتاحف لندن وميادين روما العتيقة وقباب الفاتيكان ومآذن قرطبة وحمراء غرناطة وآثار توليدو .. والاسكوريال والبراد والاسبانى الشهير وبحيرة أوهريد وجبال الصرب ودايتى تيرانا وقمم بودابست الخضراء ومسلات مصر المسروقة فى كل ميادين العواصم .

كان الشعر هو جوادى الاثير الذي يدق بسنابكه النجوم ويسابق بنات الوهم ويحملنى على ظهره حين يحتلك الليل ويدهام الافق ويفتقد الانس والانيس . ويجيش قلبى بالحنين وطلب النجاة ويؤرقنى الحضور فى ملاعب السباق وتطول بى الوقفات اليومية أمام مرايا العصر حتى تنقشع غشاوات الزبد فيذهب جفاء ! ..

ولم يكن ذلك الا قدراً .. ارتضيته هانئا قريرا لان مقاليده فى يد صديق أمين :

تغـرب لا مستعظما غير نفسـه
ولا واجدا الا لخالقه حـكما

وياله من صديق .. يمد اليك يده وقد أطبقت قبضة الحياة على العنق وضاقت الحلقات واستحكمت وغام السمع والبصر .. فيهبط هو .. كطائر النورس المهاجر ليلتقطنى بمنقاره الفضي ويحملنى تحت جناحيه ويطير عبر البحار والمسافات والصحارى .

ينحدر صاحبى المجنح الاصيل لا كجلمود صخر حطه السيل .. ولكن كجواد مطهم هائم يسابق السحب البيضاء والزرقاء ويعتلى قمم الجبال الشماء ويركض بى صوب الشرق والغرب ! .

لا خيل عندك تهديها ولا مال ....
نعم فالشعر فى زماننا فقير . لا عائد منه وماله من وارد الا اذا انشدته في الموالد والموائد وحلقات الذكر والمناسبات وطواحين الكاسيت الهوائية وملاهى الليل العلنية والسرية وشاشات التلفزيون والفيديو وموجات الاثير الرسمية ..
فليسعد النطق مادام المال لا يوافى والحال ليس شافى !
والخيل ..؟ لا يوجد الا جواد واحد حرون .. هو جواد الشعر نسيه فرسان هذا الزمان فى زحام الاضواء والاصداء .. وركبوا متونا اخرى أكثر لينا وملاءمة واسلس قيادا ووصولا ..!
هذا الجواد الصديق يحملنى بين الحين والحين كلما اشتاق كلانا للرحيل والسفر .
وفى هذه المرة .. طار بى .. ولم يكد يلتقط انفاسه بعد .. من رحلة الاندلس الذى مر عليها عام بالتمام .. ومدادها لم يجف بعد ! حتى علك اللجام وجمجم بالصهيل ولكان لو علم الكلام .. مكلمى !.. ودق الارض ايذانا بالسفر .. وانطلق بصاحبه لا يلوى على شىء !.
وكان وراء ذلك وامامه وحوله .. وجه مصر ..
كان اسمها تميمة العبور وجواز المرور وكأنه كلمة السر الدفين !
كان وجه مصر هو شمس الدفء لحظة المطر الراعدة وقمر الليل الغريب فى البلد الغريب .

((فتحى سعيد))

سوق عكاظ بين الدانوب وجبال الألب الخضـــراء

* سوق عكاظ جديدة ..

ولكنها ليست فى بطاح مكة وما والاها حيث يلتف النخيل وتنصب فى ظله القباب ويلتقى الحجيج ..

وانما غير بعيد من شواطىء الدانوب وجبال الالب الخضراء حيث تلتف الانهار وتعلو غابات الخـور واللوز والكروم ..

ولم يكن فيها « النابغة » يجلس على مقعده العـالى ليحكم بين الشعراء وتجادله الخنسـاء فى امرؤ القيس وعلقمة وسائر الفحول من شعرائنا الاول يقطعون البيداء فوق ظهور العيس والنجيبات من النوق .

وانما كانوا خليطا من الشعراء .. يسابقون الهـواء فوق ظهور النفاثات ويتكلمون بمختلف الرطانات ويلقون اشعارهم بشتى اللغات .. على ضربات طبول غانا ووتريات السنغال أو دقات كعوب الاسبان والمكسيك ..

ولم تكن أشعارا بالفصحى من لغة « تميم وطيىء » ومن لف لفهما وانما أشعار بالفرنسية والانجليزية والهندية والروسية والتركية وكل ما انزل من لغات لا يفهم أحدنا من الآخر شيئا الا دبيب النغم وحفيف أجنحة الكلمات تنفذ الى الاعماق وتتسرب وكانها كلمة السر تنفتح لهـا بوابة الشعر على مصراعيها ..

وقلت لنفسى .. ما ابعد المدى بين الامس واليوم ..

- امس وقف طرفة بن العبد باطلال « برقة ثهمد » ينعى محبوبته « خولة » والديار التى لاحت كالوشم الباقى فوق ظاهر اليد ..

واليوم .. يقف شعراء العالم يغنون ويرقصون مابين شتروجا وبيسا راواهريد وسكوبيا ، وبالامس .. مال الغبيط بامرؤ القيس ومعه صاحبته فتزجره لينزل بعد ان ادمى ظهر البعير .

واليوم تميل بنا العربات من احدث الطرز وتدور أسرع من جلمود صخر حطه السيل من عل ..

امس .. اختبأ الملك الضليل .. عند الغدير حيث تستحم العذارى ليحتال عليهن ويترضاهن بعقر مطيته . ليرى منهن مارواه فى معلقته وهو فى حينه الحدث الخطير .

واليوم .. تسفر الحسان عارية فوق شواطىء البحر وتستلقى الاجساد الفاتنات فوق ماء البحيرة دون حاجة لشاعر يحتال عليهن أو ينحر لهن ناقة أو جملا .. امس .. كان فتى العشرين طرفة .. يتيه ويزهى بأن ندماه بيض وقينته التى تغنى له ولندمائه بضة متجردة ضحوك وطعامه من بقر الوحش التى طاردها حتى خر منهـا ما اكتنز لحما وشحما وصار شوآء شهيا .

واليوم يجد الشعراء بين أيديهم من الندامى والحسان البيض والسمر وسائر الالوان ومن صنوف الطهو والطعام مالا يحصى دون أن يرموا عن قوس أو يطاردوا ـ سربا أو يتكبدوا من امرهم نصبا . !

نعم .. ما أبعد الليلة عن البارحة !

أمس واليوم وبينهما الوف السنين والاجيال ومع هذا

لم يسقط الجسر الواصل بينهما تحت وطأة الاقدام .

أمس واليوم وبينهما صنوف والوان من التطــور والتغير وتعاقب الفصول دون أن يفقد الشعر جدته أو تقتلع شجرته العاصفات ذلك لان الشعر ديوان الشعوب .. وسيد الفنون جميعا .

ولاول مرة يصبح الشعر لغة عالمية تختصر المســافات والحدود لتنصب من الافواه فى القلوب وكأنها ماء النهر المتدفق لا يختلف على منبعه أو تدفقه اثنان ..

فى مهد الاولمب

كان ذلك ذات صباح خريفى .. حين اقلعت الطائرة تسبح بنا فى بحار الفضاء ونسبح نحن داخلها فــوق البحر العريض الممتد تحتنا بلا حدود .. وهى ترفرف عبر زرقة السماء وقد انقشع دخان الأرض وغبار الاحياء فلاحت صافية مجلوة كالمرآة .. أو كأنها قلب الانســان حين يشف ويصفو فيخلو من بقع الحقـــد التى تدمغ صفحات القلوب وتنعكس على جلد الوجوه ..

وعلى صفحة هذه المرآة السماوية الصافية توالت كتل السحب البيضاء تطارد وجه الشمس فتغطيه حينا ويسفر أخرى وكأنهما عاشقان يتحاوران بالاحضان وتكاد لروعة المنظر وجلائه أن تجذب قرص الشمس بيديك جذبا .. او تقتطف من وجنتيها جمرة متقدة .. أو تركض وراء خصلات السحابات البيض وهى تتدلى من سقف الافق كأنها جدائل شعر فضية ارسلتها فاتنات من بنات الجن على ظهورهن العارية .

وتحت مرمى البصر .. انبسط البحر تسبح فيه اشعة الشمس فكأنه اللجين .. وامتدت حول البحر من كــل

الجوانب « عروس الاولمب » القديمة ومهد الاساطير والفلسفات ، ولاحت « أثينا » عاصمة الاغريق وكأنها لوحة رسمتها ريشة الطبيعة وألقت بها فى مفترق الجبال وفوق شاطىء البحر ..

وانحدرت الطائرة وحطت بنا فوق أرض الاغريق وهبت نسمات اليونان حارة رخية معا .. وطار الخيال يعانق المنظر .. ويركب عربة « زيوس » الذهبية يسابق بها الريح ويطارد آلهات الاولمب .. أو يركب حصان طروادة بحثا عن « هيلينا » المغتصبة او شوقا لفرجيل وسافور ورهط الشعراء العشاق ..

وطار بى الخيال واوغل .. فرأيت « سقراط » يكتب حكمته الشهيرة على جدرآن معبد دلفى ثم رأيته يقف فى قفص السجن وهو يعطى لكأس السم « شفتى محب يشتهى التقبيلا » .

وتخيلت زوجة « ارسطو » وهى تدلق فوق راسه جرادل الماء لانه ينفق يومه فى الكلام ويمشى حافيا فى الاسواق يدعو الناس للحكمة والجمال والحب .. بدلا من ان يعود لها بالرزق الوفير ..!

ورأيت « ديموسيس » يمضغ الحصى وينأى عن الناس عند شاطىء البحر ليحل عقده ويصير أشهر الخطباء .

وأبصرت « هوميروش » الاعمى .. يسير فى الاسواق يتغنى بالياذته بين الناس ..

ودعوت نفسى الى « مأدبة أفلاطون » حيث اجتمع زعماء الشعر والسياسة والتراجيديا والكوميديا يتحاورون فى فلسفة الحب واستغرقنى الخيال .. ومن الوقت

كلمح البصر .. وعاد الخيال محسورا وكلت العين من طول التحديق في المنظر .. ولم أر في أثينا الا وجهها القديم .. فأسرعت الى البحر أغترف من مائه حفنة موج أغسل بها حبات العرق وغبار السفر والطواف حول القرون ..

وطارت الطائرة .. لتحط مرة أخرى في عاصمة الجمهوريات الست « بلجراد » لنقضى فيها يوما أو بعض يوم حتى يكتمل عقد الشعراء .. ولم أنم ساعة واحدة ، انطلقت الى الشوارع أجوس في ربوعها وأعماقها واندس في الزحام وأدخل الحوانيت تحت الأرض وفوقها وأجر ساقي المتعبتين في استرخاء الغريب حين يحيل غربته الى امتلاء وحين يشم بأنفه ريح الأشياء ويقتضي أثرها بحثنا عن اكتشاف جديد .. أو مغامرة ما .. وقد غامت السماء قليلا ولاحت الشمس قرصا أرجوانيا توارى وراء ستارة سمراء .. ورذاذ المطر ينسال رشيقا رقيقا دون انقطاع وكأنه دموع الشمس تساقط حزنا على اقتراب موعد الرحيل .. والناس تجد الخطى تحت الرذاذ والسماء الرمادية هربا الى جدار أو نفق يحميها من لذع المطر والبرد .. وأنا أسير تحت حبات المطر سعيدا بها وكأنها قطع الحلوى تتساقط في كف طفل جذلان يتسكع لا يلوي على شيء ويترنم بأبيات قديمة وعتها ذاكرة الطفولة لامير الشعراء يصف بها طفولة تلك الأيام :

عصافير عند تهجي الدروس
مهار عرابيد في اللعب
خليون من تبعات الحياة
على الأم يلقونها والأب

وساقتني قدماي الى ذيل « الدانوب الشهير » وقد مالت الشمس أو كادت .... وخلع الغروب عباءته على الكون فنازعني شوق مبهم دفين ..

هذا هو الدانوب الشهير اذن .. وهذه هي أصداء « شتراوس » العظيم يعزف معزوفته الشهيرة عن الدانوب .. وغمرتني هزة أكثر عنفوانا .. لم تكن من اثر النسمة الماطرة الباردة .. وانما هي هزة الحنين الى جدنا الاصيل العريق اقصد « النيل » لاح لي أمام الدانوب الشهير أنه جد الانهار الاكبر وماذا يكون الدانوب الازرق ذلك الذي يستلقي تحت أقدامي شاحيا نحيلا .. لا يكاد يبين أمام العملاق الاسمر العجوز .. انه احد أحفاد النيل وياله من تمساح كبير أمام سائر الانهار !

العشاء على موائد العشب الاخضر

وغير بعيد من الدانوب .. كانت الحديقة الشهيرة « كليما جدن » فدادين من الخضرة لا يحصرها البصر .. ومساحات من الاشجار والربوات مابين مرتفع ومنخفض .. تتخللها مدرجات ومنحنيات وتماثيل للشهداء والعلماء والشعراء . وقلعة من الفولاذ والطوب الصخري العتيق تذكرك بالقرون الوسطى . ومدافع ودبابات من آثر الحرب وضعت للذكرى .. وحديقة حيوان ومتحف وقد التفت الاغصان الخضراء من كل ناحية انسدلت فوق الصخور والاحجار .. وبعضها شق قلبها وانتشر عبر المكان ..

وعلى مائدة العشب الخضراء الممتدة عبر أرجاء الحديقة الشهيرة المطلة على الدانوب الشهير كان العشاق يتناولون خبز الحب ويغمسونه في رحيق القبلات ..

كان العشاق يضمون حلوى الشوق واللقاء فى ظل الهواء الطلق ، وتحت مظلة المطر وقد احتموا من عيون الرقباء بحبات الماء المنهمرة ولاذوا من برودتها بدفء العناق .. وقد غطى الهوى وما ألقى على الابصار ..

وسرت الهوينى . حتى لا يخدش وقع الاقدام حياء العشاق او يعكر عليهم صفو تناول العشاء .. وكأنى انا الذى ارتكب ذنبا أستحق عليه الاختباء !

وعدت ادراجي الى المدينة وقد سجى الليل وهاج الشعر والهوى فترنمت بهذا البيت القديم :

وذو الشوق القديم وان تعزى
مشوق حين يلقى العاشقينا

***

وطارت بنا الطائرة مرة ثالثة .. وحطت على شواطىء البحيرة الكبيرة بحيرة الضوء « أوهريد » حيث استقبلتنا فتيات جميلات كأنهن سرب المها فى الثياب المزركشات يطفن بالحلوى وزهرات القرنفل القانيات .

وارتقينا الجبل فى عربات تضرب فى حواشية ساعات من الزمان بين مروج الخضرة بساتين الكرز والخوخ واشجار الصنوبر والزيتون حتى صعدت بنا قمة عالية فى قلب الجبل تربع فوقها فندق رائع برتقالى اللون تطل شرفاته على الجبل من ناحية وعلى البحيرة من ناحية اخرى ..

انت فى ملتقى الخضرة والجبل وصفو السماء تكاد تخترق عيناك صخور الجبال الشامخة المتاخمة لاجمل المناطق بايطاليا والنمسا والمجر ورومانيا والالبان .... غمضة عين ثم انتباهتها تحملك الى ربوع هذه البلاد ..

لو تجاوزت الجبال التي تحول بينك وبينها .. جبال الالب تجثم على شمالها الغربي والبلقان على شمالها الشرقي ..

أنت اذن تتنفس خليطا من الهواء يحمل نبض كل هذه البلاد .. ويعيد اليك ذكريات « دروس الجغرافيا » وما كنا نلقاه فيها من عنت شديد ..

خليط من كل شيء .. من البحار والبحيرات .. ثلاثمائة بحيرة أشهرها واكبرها « أوهريد ودويران » عشرات البحار والانهار أشهرها « الدانوب وسافا ودريم ، والابيض المتوسط والادرياتيكي » ..

خليط من الجنسيات ..

البان واتراك وأيطاليون والمان ومجر وغجر ومسلمون ومسيحيون ..

خليط من القوميات والحضارات ... بصمات أوربا الوسطى وحوض البحر والاغريق والرومان وبيزنطة .

خليط من الحروب والغزوات .. الاتراك والبلقان والبندقية والالمان والحربان العالميتان .

خليط من كل لون وشكل . ولكنه يرتدي زيا .. واحدا في كل وقت هو الثياب الخضراء .. حتى واجهات البيوت وأكواخ الفقراء .. تكسوها الغصون الخضر وكأنهم انفقوا العام كله في نسج حواشيها وتطريزها لتكون ثوبهم المفضل يوم افتتاح المهرجان ..

وياله من مهرجان .. سبعة ايام من الشعر المتواصل . ولا شيء غير الشعر !

ليالى الشعر فى العالمية

اسمه « ليالى الشعر العالمية فى شتروجا »

وشتروجا مدينة وادعة جميلة تستلقى بين أحضان نهر صغير حالم يتدفق من صلب الجبال وأعماق البحيرة الكبيرة ..

وفرقة جسر خشبى يربط الضفتين .. وعليه جلس الشعراء يقولون قصائدهم ..

كأنه خشب القيثارة وهم أوتارها التى تعزف اغانيها فوق الماء .

كان أول مهرجان أقيم عام ١٩٦٢ احتفالا بمرور مائة عام على أكبر شاعرين أخوين من شعراء ماكيدونيا .. كانا طليعة شعر الحب والسلام والطبيعة .. وطليعة النضال والحرية فأسرا وسجنا وعاشت أشعارهما ..

هما الاخوان « ميلادينوف » ولدا على ضفاف نهر « درم الاسود »

« الكسندر وقسطنطين » وحفظ لهما ابناء وطنهم الجميل فاقاموا هذا المهرجان السنوى الشعرى الذى يستضاف فيه الشعراء من كل بلاد العالم وتمنح فى نهايته جائزة « الاكليل الذهبى » وهى سنبلة من الذهب الخالص لشاعر كبير على مجموعته الشعرية الكاملة .. نالها بالتعاقب « بابلونيرودا » شاعر شيلى ، والشاعر الامريكى « أودين » والايطالى « مونتال » والتركى « دوجلاركا » واخيرا « سنجور » شاعر السنغال .

وافتتح المهرجان .. اشعلوا شعلة كبيرة توهجت فى نفس لحظة غروب الشمس وعزفت الموسيقى .. وارتفعت مئات الاعلام فى الهواء .. وتقدم أكبر نجوم المسرح

والسينما يقرأون الاشعار ممثلة كبرى مرة وممثل كبير اخرى .. وهرول الاطفال عراة حفاة من قلب النهر .. واستندت العجائز على جدران المسجد القريب .. واتكا الصبيان والبنات على جذوع الاشجار .. وتوهجت عدسات التلفزيون والصحافة تنقل المهرجان على الهواء وانطلق الشعر في الهواء الطلق .. وتحية للشاعرين « ميلادينوف » قرأوا عدة قصائد لهم .. كان أروعها هذه الابيات :

« من لي بأجنحة النسر
لأطير الى وطني الحبيب ٢
لأرى ما اذا كانت الشمس هناك
مثلما هي هنا ..
تخترق حجب الظلام لتدفىء القمم
لو يستطيع قلبي أن يثب الى أعلى
على نفثات نافخ المزمار
عندما تنحدر الشمس لكان موتي هينا سهلا .. »

وتتابع الشعراء من بلاد العالم يلقون أشعارهم بلغاتهم الأصلية وتقرأ ثانية باللغات السلافية . مئات من الشعراء والشاعرات : جيلفيك من باريس وتحسين سراج من تركيا ، وأريك من النرويج وارمينسكا شاعرة رومانيا وكورفا من أوكرانيا وميجر شاعر امريكا الجنوبية وهوميرو شاعر المكسيك وازوارد شاعر بلجيكا وبانابيرانوفا شاعرة هولندا الفتية وجان بريير ولازار ودوجلاركا وسنجور ومن قبل حضره بابلونيرودا وايلوار ومونتال الايطالي وفازوا بالسنبلة الذهبية وانتهت أولى الامسيات بافتتاح معرض الكتب . كتب الشعراء المشتركين في المهرجان

والفائزين بجوائزه الذهبية مع صورة كبيرة عن كل منهم امتلأت بها جدران وجنبات « بيت الشعر »

وهو ليس بيتا من الشعر العمودى او المرسل وانما بيت من الطوب والحجارة يحتوى مكتبة وقاعات للمسرح والموسيقى وله مدير متفرغ ومهمته الاحتفال بأبيات الشعر والتحضير للمهرجان وترجمة ونشر القصائد الملقاة عاما بعد عام ..

وتوالت الايام شعرا ولا شيء غير الشعر . اليوم التالى فى « بيسارا » ومعناها اللآلىء لالتماع قطرات الماء تحت ضوء الشمس وكأنها حبات اللؤلؤ المذاب .. حلقات بحوث .. واشعار وانخاب ومركز صحفى كامل للتغطية ..

شعر فى الصباح وفى المساء . وجمهور يزيد ويتضاعف وامسيات متوالية تنتهى كل منها بليلة مفتوحة يقول من فيها شعرا بلا برنامج محدد .. وحلقات من الرقص والغناء الشعبى وتجذبنا الراقصات الحسناوات الى حلبات الرقص نشاركهن رقصاتهن الشعبية .. ولهشتنا نحن الشعراء ولم يتعب المستمعون ولا الراقصات ..



وحطت بنا الرحال للمرة الرابعة فى بلد جديد نعيد فيه ونزيد ماقلناه طوال ليالى المهرجان .. وتكابد فيها ماكابدناه من قبل واكثر ..

رحلة طويلة على مدى خمس ساعات وعلى ارتفاع هائل فى قلب غابات من الجبال يخترقها قطار الشرق السريع . لم نقطعها بالطائرة هذه المرة وانما فى عربات تسلقت شعاب الجبل وارتفعت حتى لامست الذرى . وهبطت

حتى غاصت في أعماق المروج وينابيع الماء . واشعة الشمس تغمرها من كل جانب وكأنها حمام صباحى من الدفء الوثير . حتى انتهت بنا الرحلة في « سكوبيا » الجميلة عروس مقدونيا التي توالت عليها النكبات منذ كانت مهد الاغريق القديم حتى صارت قطعة من أوربا . والتي استعادت شبابها بعد أن دمرها زلزال عاصف منذ سنوات تسع . وبعد أن اشتعلت فيها النيران حين امر جنرال النمسا « بيكولو فينى » باحراقها عام ١٦٨٩ .

ومن قبل اقتنصها الاتراك وداسوا فوق ضلوعها عام ١٣٩٢ حتى مزقوا اوصالها في الحرب العالمية الاولى مابين اليونان والبلغار وفى هذا المكان الذى يجمع بين عراقة الشرق وجدة الغرب .. وكل ذكريات النكبات النازلة . عشنا على نفس الوتيرة الشعر ولا شيء غير الشعر فى المساء .. فوق قمة جبلها الكبير حيث مبنى « المتحف الحديث » تحفة فى المعمار والجمال .. وقد افترش الناس الارض بعد ان اكتظت القاعات . هل يسمعون الشعر . وفى الصباح في قلب أحد الانفاق حيث « قاعة البنك » الفاخرة لنقول ماقلناه من شعر .. وليكرر نجوم المسرح والسينما ماقلناه مترجما بلغتهم الاصلية ..

وتساءلت لماذا يعشقون الشعر هنا هذا العشق الغريب ؟

« الدكتور دوشان » أستاذ الادب المقدونى بالجامعة قال : هذه عادة قديمة درجنا عليها انظر بنفسك وابحث عن الجواب .

سألت مرافقى « فلاديمير » ذا اللحية الحمراء والوجه

الطفولى الذى يشبه الايقونة قال : هكذا ولدنا .. نحب الشعر ونقوله . .أنا أعشق شعركم العربى والشرقى وأحفظ جبران وطاغور جيدا .

سألت مدير ليالى الشعر نفسه «يوفان ستريز فوسكى» وهو شاعر روائي شهير فقال : لا ادرى بالضبط .. ربما الطبيعة الساحرة ربما حركات النضال والثورات ضد الغزو وربما تنافس كل جمهورية زميلتها فى التعبير عن نفسها بالشعر .

سألت أكثر من واحد « يوبا » شيخ شعراء يوغسلافيا « وايفن لاليدج » الشاعر الأديب و « ميروسلاف ميتروفيش » رئيس الاتحاد الفيدرالى .. ولم أظفر بجواب محدد . وقلت لنفسي وانا أحدق فى روعة الطبيعة حولى .. فيم السؤال ؟ والطبيعة ذاتها قصيدة شعر .. ترى من نظمها ! ؟

وانتهت ليالى الشعر .. وتفرق الخليط وانفرط الركب بعد أن توثقت عرى صداقات فى الاعماق وكاننا أصدقاء أعوام لا أيام .

وتبادلنا الاحضان والقبلات وبعض الدمعات :

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح
اخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطى الاباطح

سنجور :
عصفور افريقيا الرقيـــق

رأيته ثلاث مرات خلال ثلاثة أيام

الاولى .. ذات مساء .. تحت سقف كنيسة عريقة المداخل ملونة برسوم ولوحات لم تبل رغم القـــرون . يكاد يضيء فوق جدرانها وجه مريم والمسيح ويجتمع في صحنها مسجد ومحراب ..

الثانية .. ذات أصــيل فوق جسر خشبي يعتلى نهر « دريم » واحد من الوف الانهار الصغيرة التى تمرح على الشاطيء الادرياتيكى كأنها أحفاد الجبال تدفقت من صلب الصخر لتنتشر في ربوع البلاد وتصـــب في البحرين الابيض والاسود وأشهرها : فاردار وسافا والدانوب .

والثالثة .. ذات ضـحى وقد ارتفع قرن الشـــمس واستطال على مائدة من العشب الاخضر وغداء في ظــل جبال الالب على ضفاف الجمـــل واكبر البحيرات البيضـاء .

وفي كل مرة لم ار فيه الا وجه العصفور

ذلكم هو سنجور .

عصـــفور اسود .. ضامر .. رقيق .. قصير القامة فارع الابتسامة جم الحياء .

ينقل ساقيه فوق الارض وئيد الخطوات يرق بجناحيه كمن يهم بالطيران لاول مرة ..

يدق اديم الارض فى أناة شيخ حكيم وجذل طفـــل يمشي على حذر ..
وتلفت عيناه الواسعتان كانهما قطرتا ندى سقطتنا من عليا الغابات على زجاج النظارة البيضاء ..
بسيط كطفل .. رشيق كنسمة .. انيق وسيم كانه قطرة ضوء .
صامت الملامح ، كثير الاطراق كانه لا يجيـد الا فن الصمت ..
هذا هو الشاعر ..
ستة دواوين شعرية وعدة مؤلفات فى الادب والنقد والسياسة ودكتوراه فخرية من جامعة القاهرة عام ١٩٦٨ وجائزة الاكليل الذهبى العالمية فى الشعر عام ١٩٧٥ ..



ورحلة طويلة عريضة عمرها تسعة وستون عاما مابين ادغال القارة السوداء ذات اللغات السبعمائة والتى توالت عليها الوان شتى من الاستعمار فى شكل « ارســاليات حضارية » زعموا ظاهرها تأصيل الحضارة وباطنها لتشويه معالم القارة ليغترفوا من كنوزها ويعبوا من عرقها الاسود الثمين .
رحلة طويلة قطعها الشاعر الرقيق من احراش الغابة الى رحاب باريس ، لا حالما بالضوء والنبيذ الفـــرنسى واضواء الليل الباهرة .. بل طالبا للعلم والمعرفة من اجل حرية الشعر والوطن .
رحلة شاقة مضنية جمعت ثلاثة من الرواد من ابنــاء القارة السوداء .

سيزير وداماس وسنجور .. ربط بينهم الفن والطموح من أجل الوطن فنزحوا من عاصمة الظلام الى عاصمة النور ليصدمهم اول شعار مكتوب فوق بوابات باريس : « انتم سود ونحن بيض » ..

اذن فلنبدأ المسيرة نحو افريقيا الجديدة المستقلة وليصغ عالم البيض الى ايقاع دم الطبول الافريقية .. « وعندئذ يعود ماكان في أقدم العصور وتتحقق الوحدة ويرتبط الفكر بالعمل والاذن بالقلب والاشارة بالمعنى »

وليكتب الشاعر شعرا اسود بأكثر اللغات تجريدا وهي الفرنسية ليحطم خرافة التفوق الابيض ..

فكان أول افريقي يحصل على درجة « الاجريجاسيون» من السوربون ويطلق أشعاره أشبه بصيحة أفريقية تشق حجب الظلام ، وتمجد الوجود الافريقي ونضال الانسان المقهور فى كل زمان حتى ليهتف « سارتر » معلنا : « ان جزءا كبيرا من روائع الادب الفرنسي يرجع الى انتاج الافريقيين » ..

ذلك بعد أن هتف سنجور معلنا : « لم تعد هناك نبالة الفيلة .. ان هى الا بربرية هى بربرية الوحوش فى بدء العالم » .

موكب مهيب فخيم .. سيارات ذات أبواق وبيارق .. دراجات بخارية تنهب الطريق نهبا .. مرافقون ذوو نياشين واوسمة تلمع فوق السترات اللامعة ..

حرس شرف زاهي الالوان .. اكثر من سلام موسيقى وموائد استقبال وحفلات غداء وعشاء وتذاكر دعوات مذهبات الاركان ..

ذلك هو الرئيس ..

ليوبولد سيدار سنجور رئيس جمهورية السنغال منذ بدأ رحلته الشاقة حتى تحررت عام ١٩٦٠ وظل رئيسها الى الآن وباجماع الجماهير ..

زعيم حزب الاتحاد التقدمى السنغالى فى بلاده منذ بداية نشاطه السياسى مرورا بعدة احزاب ومعارك سياسية واصدار مجلات وتبنى دعوات تحررية مختلفة .. ومنذ وقع فى قبضة الالمان اسيرا حين انضم لفرقة المشاة الفرنسية ضد الزحف النازى ..

جناحان قطعا بهما الرحلة الطويلة .. جناح النسر فى معترك السياسة ، وجناح العصفور فى سماء الشعر .

وبين الموكبين : موكب الشاعر الطفولى وموكب الرئيس الرسمي رأيته كثيرا وفى كل مرة لم ار فيه الا وجه العصفور ذلك هو سنجور ..

تحت سقف الكنيسة

اما الكنيسة فكانت لاهل هـذه البلاد من القبائل السلافية التى استوطنت شبه القارة البلقانية والتى تناثرت فى ارجائها الكنائس حتى بلغ عددها عدد أيام السنة ..

هى كنيسة « صوفيا » ذات الطراز العتيق وطأها اقدام الغزاة العثمانيين فى زحفهم المغولى .. حيث أحرقوا « ماكيدونيا » أجمل المدن فى الرقعة الاوروبية ودمروا « الجبل الاسود » ملتقى حضارات بيزانطة والرومان ..

واقام الغزاة منبرا فى قلب مذبح الكنيسة ليتحول الى مسجد وتركوه حتى الآن ليكون تذكارا لهمجية الغزاة .

كان الوقت قبيل الغروب ، والشمس قرص من ذهب خضب وجه الافق ، والقى على أشجار الحور والصنوبر والبلوط المتناثرة فوق الجبال كأنها سيقان عالية من الخضرة تتسلق الفضاء لتحاور وجه السحاب . وقد اعارتها الشمس الغاربة غلالة الشفق تلفها على جسدها الاخضر النحيل وكأنها خرجت لتوها من ميـــاه البحيرة المضيئة ..

ومالت الشمس أو كادت فهبت رعشة باردة ، ونازعني شوق لا يكابده الا من عاني من مشهد يوم غارب في بلد غريب .

وسارت الخطى عبر ازقة مبلطة قديمة عليها بصمات الاتراك لامعة بلا نقطة غبار او قمامة ، وانما غصـــون خضراء تتدلى من النوافذ وأواني زهور وورود تمــلا شرفات البيوت ويسلمك الزقاق الطويل الى زقاق آخر وكأنك تجوس في أعماق الغورية وتحت الربع .. حتى تنتهي الى الكنيسة العريقة الشهيرة في فناء الكنيســة هاص سنجور في مقعد كبير وكأنه بقعة ضوء ســوداء التمعت تحت عيون الكاميرات والعدسات التي تكاثرت من كل فج وأمامه خشبة مسرح صغيرة ، واتســعت لاوركسترا واربعة من كبار النجوم : رجل وامرأة مـن السنغال ومثلهما من مقدونيا يتنافسون في الابداع والاداء الشعري لقصائد سنجور باللغتين الفرنسية والصربيــة ويقوم هو في هدوء شديد ليتلقى براءة جائزة الاكليل الذهبي للشعر .. التي سيتسلمها غدا في حفل كبير وتدوي ارجاء الكنيسة بالتصفيق ويتكاثر عليــه الجميع حتى لا يكاد يبين وهو يشق طريقه للخارج يلوح بيديه

ويخفض البصر حياء كأنه العصفور .

ذلك هو سنجور الشاعر ..

وتدوى فى الخارج الابواق ، ويشتد أزيز العربات ، ويصطف الحراس ، وينطلق الموكب ينهب الزقاق نهبا ..

ذلك هو سنجور الرئيس ..

وقلت : ترى هل يذكر الان تلك الابيات الرقيقة من شعره كأنما يصف نفسه ويصف اللوحة كلها :

« اتخيل انك هنا
فهنا الشمس
وذلك العصفور الضائع فى الحقل الغريب
كما لو كان أصيل امسية صيفية متوهجة
الاكليل الذهبى فوق جسر خشبى »

المرة الثانية كانت فوق الجسر الخشبى الذى اتسع لحشد من الشعراء فى أصيل امسية متوهجة فوق نهر « دريم » شريان مدينة « شتروجا » عروس المهرجان العالمى .

اشتعلت الشعلة النارية وانطلقت الصواريخ الزاهية ، وعزفت الموسيقى ، وخرج الاطفال والنساء والشيوخ يفترشون ضفاف النهر ويقفون حول الجسر الخشبى ويسدون الطرقات ، وجلس سنجور بلا حجاب وحراس وسط زمرة الشعراء مابين سود وبيض وصفر يمثلون انحاء العالم . ووقف كبار الممثلين والممثلات يلقون قصائد الشعراء بلغة بلادهم .. ويقف بعدهم الشعراء يلقون قصائدهم بلغتهم هم .

وكان سنجور يحدق بأذنيه وعينيه معا ، وهو يصغى

الى الشعراء يحاول أن ينفذ الى قلوبهم من خلال الايقاعات والاداء ، عله يفهم مايقال بعد أن تعددت اللغات ، ويعبر عن ذلك كله تصفيقا أو بايماءة او ابتسامة .. وكان سرا مافي أعماق الشعر آلا يعبأ باختلاف المسافات واللهجات وانما يوحد الشعور بين الشعراء جميعا ..

ويجيء دور سنجور ويتقدم وحيدا هادئا يكاد لايمس الارض بقدميه ليقف أمام الميكروفون وعدسات التليفزيون ليهمس باشعاره همسا .. أشعار قصيرة رقيقة الوقع .. لغة فرنسية كأنها موسيقى تشف عن رقة وعمق في صوت سنجور ونفذ الشعر الى القلوب رغم اختلاف اللغات ..

ويقف مدير ليالى الشعر ليسلمه الجائزة .

سنبلة كبيرة من الذهب الخالص .. يكاد بريقهـــا يخطف الابصار داخل علبه فاخرة حتى لتنوء بثقلها ذراعا الشاعر فيخف حارسه ليحملها عنه ، وقد تســـابقت العدسات وومضات الضوء تسجل اللحظة التاريخيــــة وتنقلها على الهواء ..

ويعود الى مقعده .. بجانب زوجته الفارعة الجميلة .. بنفس الخطى الوئيدة وهو يقلب عينيه في الارض ..

ترى أكان يقصد هذه اللحظة المشحونة عندما قال :

« ان الرجل الاسود هو انسان الطبيعة لا يقبل الوساطة بين الذات والموضوع لكنه يقبل كل شيء انغاما وروائح وايقاعات واشكالا والوانا ..

انه يحس الاشياء اكثر مما يراها »

الغذاء على مائدة من العشب

المرة الثالثة .. كانت على مائدة من العشب الاخضر

في ظل الجبال الشامخة الخضراء .. وقد غمرت الشمس وجه الارض ..

كان ذلك في الصباح الباكر وقد انطلقت بنا باخرة صغيرة من « اوهريد » عاصمة ملوك مقدونيا الاوائل واجمل البحيرات لتمخر عباب الماء زهاء ساعات ثلاث نسرح البصر خلالها مابين الجبال التى تحجب وراءها رومانيا والبانيا وبلغاريا .. وبين غابات الخضرة التى تكلل كل شيء وسطح البحيرة الشفاف كأنه الضوء ، ودفء الصباح الوثير حتى حط بنا الرحال فوق مروج خضراء تمتد بلا مدى في سفح حصن شامخ قديم يتبوأ صخرة عالية كأنه حارس من مردة الاولب .

وانفرط الموكب فوق العشب : شعراء من كل فج وصحفيون ورجال اعلام . وموائد صفت بألوان الطعام والنمارق والانخبة ...

واقبل سنجور .. بنفس طلعته الاليفة الودود وعزفت الموسيقى وطافت العذارى بملابسهن الزاهية بحلوى اللبن وزهرات القرنفل الحمراء وتناثرن حوله في حلقات وكأنه طفلنا المدلل الوحيد ...

وهتف الشعراء وهم يبادلونه الانخاب قائلين :

نخب الشاعر .. لا الرئيس .. فليحيا الشاعر فقط !

وابتسم سنجور .. ولم ينزعج مرافقوه .. بل قال وهو يرفع نخبه :

« نعم الشعر هو الحياة وهو الابدية .. يذهب الجميع ويبقى الشاعر » . وتوالت الهتافات والانخاب ، واشتد رنين الاوتار والتهب الشعراء حماسة وتشابكت الايدي

حول الخصون في رقصة شعبية دائرية تمرق بنا بين الاشجار وفوق بساط الخضرة الممتد وأنهار النبيذ الحمراء ويصفق لها سنجور ويبتسم ويهتز ويود لو انخرط بيننا لولا رتبة الرئيس وما لها من تقاليد .!

وانفلت الوقت كأنه لمح البصر وثقلت الرءوس ، واكتظت البطون ، وآن الرحيل ووقفنا نودع سنجور الوداع الاخير .. فقد انتهت زيارته وآن له أن يحمل غصنه الذهبي عائدا الى بلاده . وكأننا نودع صديقا حميما عاشرناه أعواما لا أياما .

واوشكت ان اهتف ويهتف معي الجميع : لم لا تبقى بيننا ايها العصفور الرقيق .. لديك العشب واجنحة الشمس وريشة السحرة والفراشات السبت القائل :

« عندى رغبة كبيرة أن انام بين العشب وبقع الشمس تطرز جسدى العارى واجنحة الفراشات العريضة الناصعة وكل أنواع حيوانات الارض الصغيرة حولى .. »

***

ذلك هو سنجور الشاعر
وذلك هو سنجور الرئيس
ومابين الاثنين لم أر الا وجه العصفور عصفور أفريقيا الرقيق ..

الطفل ذو اللحية البيضاء

نعم .. طفل يحبو للسبعين ..

ولو زعم انه ابن العشرين لصدقته .

قصير القامة يثب ان خطا وكـــانه يرتقى درجا فى الهواء ، ويغدق على المكان هالة من نور تشدك اليـــه وانت لا تعرف من يكون !!

الصدر غابة من شعرات بيضاء تعرى تحت لدع المطر ونسمات البرد القارصة فى وضح النهار ..

والوجه تفاحة بيضاء مشربة بحمرة العافية مسقيـــة بالقطرات من معتقات انبذة باريس ..

وعلى الشفتين ابتسامة كانها ليست له لطول ماتركها على حالها من التبسم !

وعين كعين الديك .. تكاد تضىء خلف المنظـــار الذهبى الرشيق .

وعلى الراس تاج من فضة رمادية انسدل حتى غطى الكتفين ..

كانه خصلة الجواد العربى الاصيل .

ولحية بيضاء وارفة .. ربضت على مشارف العنق كحارس لا يريم .. اشبه بطائر البحر « النورس » ان جاز التعبير لمشيته أيقاع ولهرولته حفيف ولحضوره بهجـــة وامتلاء ..

باختصار من هؤلاء الذين ينسكبون داخلك للوهلة الاولى وكانك تعرفهم منذ سنين خلت .

***

رايته في مطار بلجراد .. — أول مرة — لم أعرف من هو ؟ ولكن شيئا ماشدني اليه واخذت الاحقه بالنظرات والتساؤلات :

هل هو رسام ربما ..

فطاقيته الباريسية ولحيته المرسلة تذكرانك بصعاليك باريس من فرسان الفن التشكيلى أمثال « لوتريك » وموديليانى .

هل هو موسيقار ؟ ربما .. فهو يتخطر فى خفة وشجن كأنه « شوبان » شاعر الموسيقى على كل حال .. ليس مخترعا أو عالما أو وزيراً .. فهو طلق المحيا غير متجهم يبدو حالما لا مفكراً .. له لحية « شـو » او « تولستوى » .. وليست لحية « أديســـون » او « داروين » !

ولم يطل تساؤلى .. فجاة وجدته أمامي وبيننا مرافقنا « دكتور دوشان » أستاذ الادب بجامعة مقدونيا .. وهو يقدم كلينا للاخر تحت لافتة عريضة مكتوب عليها : « ليالى الشعر العالمية فى شتروجا » :

جلفيك .. شاعر فرنسا .. جيل أراجون وايلوارو عاشق الحياة الجوال ..

وتعانقنا بالايدى والنظرات وصدق ظنى وكان شاعرا !

قليل من الفرنسية يصلح الصحبة

كانت اللغـة حائلا بيننا .. فهو يتحدث الفرنسية

والالمانية والايطالية فقط !

ولم تهم اللغة .. كلمات متناثرة بالانجليزية التى لا يجيدها وقليل من الفرنسية التى لا أجيدها ..

وقلت له : قليل من الفرنسية يصلح الصحبة ..

وقال ضاحكا : وكثير منها يصلح السهرة !..

وانطلقنا الى فندق « سلافيا » الكبير كان الوقت فى الظهيرة .. والشمس غائمة .. والسحب تركض فى الفضاء الرمادى الحزين ركض الهارب من العاصفة .. وحبات المطر تتساقط فوق أوراق الشجر ونوافذ البيـــوت والحوانيت وتغمر وجه الطريق ..

وما ان وصلنا حتى قال لى : دع كل شيء وهيــا الى الطعام فهذا الطقس يحتاج الى أكثر من دفء .

وقلت لنفسي هامسا : بل ان الرفقة الحميمة والصحبة اليانعة هى دفء الرحلة وعون السفر .. فاذا ابتليت فى سفرة بما يعكر الصفو وينشر الصقيع ، ويكشف عن سواد الطوية فما اكدرها من رحلة .. فليكن فى صديقى « جلفيك » عوضا عن فقدان حلاوة الامتاع وطـــلاوة المؤانسة فى رحلة الغربة . وكربة الرفقة الباردة .

وهكذا كان .. منذ ضمتنا أول مائدة فى بلجــراد العاصمة وعلى مدى موائد أخرى .. مابين شعر وبحث وندوات وعشاء فى « بيسارا » الجميلة وفى « أوهريد » الفاتنة واخيرا فى « ماكيدونيا » العريقة التاريخ كــان خير الصديق فى الرحلة ونعم الخبير بالدروب والمسالك واحسن الذواقين للأطعمة والاشربة .

قلت له : تذكرنى بصديق حبيب .. فى فتوتك وشباب شيخوختك وخبرتك فى تعاطى الحياة الفن .

قال : وهل له لحية بيضاء وارفة مثلى .. وهل هو شاعر ؟

قلت : بل حليق الثلاثة .. شعر الرأس واللحية والشارب يهمس بالشعر ويجهر بالموسيقى ويلوذ بصومعته ودفء الاصدقاء .

قال : اذن هو موسيقار .. قبله بالنيابة عنى ولنشرب نخب صديقك الموسيقار العجوز ! .. « مدحت عاصم »

الشعر للحياة .. ولا احب الوقوع فى البراثن .!

وامتدت بنا الرحلة .. قطعنا آلاف الاميال بالطائرات والعربات حتى حط بنا الترحال الى «سكوبيا» عاصمة المقدونيين الاوائل ومهد الفتوحات والاسكندر وسقراط والتلال الخضراء والانهار كان هو خلالها قرة الاعين وموضع الاكبار دون ان يلهيه ذلك عن انفراط الصحبة .

وقف له « سنجور » شاعر السنغال مصفقا .. والتف حوله رهط من الشعراء من كل فج مرحبين . ومتوجين .. وفى العاصمة العتيقة .. وفى ركن من احدى حدائقها استعنت عليه بشاعرة حسناء ..

غراء فرعاء مصقولة العوارض كقول الشاعر العربى كانها الظبية فرت عن الخباء .. متدفقة الصوت تنطلق الكلمات من فمها كالقذائف شهباء العينين . قمحية البشرة والشعر . لانوثتها لمسة رجولة تضفى عليها جاذبية وشوقا ..

استعنت عليه بالشاعرة الهولندية « يانا » ومعناها

القوية الصلبة الجسور وانها لكذلك .. تتحدث عشر لغات وبسرعة الصاروخ ! وشاعرنا ينطلق في فرنسية عذبة رخيمة .. ويحكي :

لا اذكر متى بدات الشعر .. في الثامنة مثلا .. تاثرت برامبو وبولير وفرلين وبالادب الالماني خاصة جيته وريلكة وكنت احلم دائما وانا أكتب الشعر .. كنت أتخيل نفسي اكتب على جذع شجرة واسمع الاحلام وارى لها صوتا وانا الان .. اذا لم احلم لا أكتب .

رامبو ايضا كان يتخيل للحروف اصواتا والوانا واخترع كيمياء الكلمة .

رامبو حلم بالكلمات وكان يسمع لها أصواتا .. اما انا فعندما استيقظ من الحلم اتذكر الشكل لا الكلمات كما كان يفعل رامبو .

عمري دون السبعين بعام ولكن عمري الحقيقي هو الشعر وهو لغة ثانية ارقى من اللغة اليومية وكتبي عشرون كتابا منتشرة في غرب اوربا أول كتاب عام ١٩٤٢ واسمه « في الاعماق » والأخير عام ١٩٧٣ واسمه « فوق الارض » . لا اتقيد بمذهب معين ولا اعتبر نفسي شاعرا تقدميا او رومانتيكيا وانما شاعر طبيعي .. شاعر فقط لا احب الوقوع في براثن المذاهب .. وأعشق الانسان والحياة والقصيدة الجميلة .. والعالم كله وطني ... والنساء كلهن زوجاتي وكل الاطفال اطفالي .. لست متزوجا .. ولي ابنة واحدة الكبرى انتحرت .. احتجت على الحياة وفرت منها وهي في الثانية والاربعين ..

كنت موظفا بوزارة المالية .. وكيل وزارة تقريبا لا علاقة للفن بالنقود ومعاشي لا يكفيني لكثرة نفقاتي ..

لذلك أعيش على بريخت .. أقصد على ترجمة أعماله وأكتب الاغانى .

شعركم العربى وايقاع الجياد

ماذا عن ايلوار واراجون وناظم حكمت .. باعتبارك معاصرا لهم ؟

اراجون وايلوار ليسا فى ذاكرتى رغم معاصرتى لهما .. كبيران ومحبوبان عند الناس .. واراجون لم يقدم جديدا فى رأيى .. وايلوار خلق شيئا وأفضله على اراجون ..

وناظم حكمت مثله شعبى ومحبوب ولكنى أوثر « بريخت » واراه شاعرا كبيرا .. « وبودلير » كان أشعر من كتب الشعر الحديث .

ما الشعر عندك .. وماذا تقول للشعراء ؟

الشعر شجرة الحياة .. ثابتة الجذور فى الارض وتغطى فروعها كل الدنيا ..

والشعر هو الحب والثورة وأهيب بالشعراء أن يثوروا دائما ليصعدوا دائما .

والحب عندى هو الثورة وبلا حب لا تستطيع أن تثور ولذلك أنا فى حالة حب دائم .. أننى أحب الحرية والثورة وأعادى الاحتكار والقهر .. وقلبى مع العرب .

شعركم العربى الذى سمعته فيه ثورة وصعود .. لم افهم اللغة ولكننى احسست انه شعر كبير ومتقدم .. شعرت بايقاعه الذى كان لغة فى حد ذاته ..

كأننى أسمع فى شعركم العربى وقع حوافر الجياد وهى تنهب وجه الارض .. فى شعرنا لا تحس بذلك ..

الفرنسية والايطالية تخلوأن من هذا الايقاع رغم شعرهما الجميل ..

والشاعر الكبير هو الذى يجعل الاشياء ممكنة الصعب .. فالحياة جميلة واننى اباركها .. والشعر هو اللغة العالمية لهذه الحياة اذا عزت اللغات .

لم أر مصر قط .. حضرت هنا «شتروجا ومقدونيا» ثلاث مرات وطفت معظم العالم .. وبودى ان أرى مصر قل لهم ان يدعونى .. او تعال انت الى باريس وعد بى للقاهرة ..



واندفعت « يانا » الهولندية الشاعرة وهى تقـذف الكلمات كالصاروخ وتنهى بيننا الحـديث ببيتين مـن شعرها :

« عندما لايكون احد يستمع الى لا احد .. بدلا مـن الكلمات تشعر الناس وتحس أن العالم كرة وفوقها ندور نحن بالدراجات وفوق الاقدام !. ويوما ويوما ماندور .. ونلتقى فى القاهرة .. »

وجه صديقى القديم
فى مهد الاغريق العظيم

● « السبب الوحيد لشقاء الانسان هو انه لا يعرف كيف يستقر هادئا فى حجرته » •

« باسكال »

كنت اسميه مداعبا « ألفونس الصغير » تيمنآ باسم « الفونس دوديه » الفنان الفرنسى الشهير ..

كان شبيها بالفرنسيين واشبه بالفرنجة من أهل العيون الزرق والدماء الزرقاء .. والرطانة الهوجاء ..

وكان أقرب فى ملامح الوجه والقامة وانسدال خصلات الشعر .. واستدارة الشارب والحاجب الى صورة « ادجار الن بو » الأمريكى القلق الحائر .. الفنان والشاعر الذى وصفه جورج برناردشو بقوله :

« لقد تم إكتشاف أمريكا ولم يتم اكتشاف « بو » هذا الفنان الأشد روعة من الفنانين الرائعين .. هذا المفطور على ارستقراطية الكلمة .. واحسرتاه ! انه لم يعش هناك .. لقد مات هناك .. وتم القاؤه فى حينه كسكير وفاشل رغم أن السؤال يبقى فيما اذا كان قد شرب طيلة حياته حقا بقدر مايشرب الأمريكى السفاح اليوم خلال ستة اشهر ودونما اى تعليق ! !

كان يحمل ذلك الوجه النابليونى الاليف .. العيون التى تشع ذكاء ومكرا .. والجبهة العريضة البيضاء ينسدل فوقها خصلة شعر شقراء والنكتة الباريسية

المدللة المنعمة الكلمات .. بجانب اللهجة المصرية الدفينة بأعماق الحارات .. وطاقة باهرة من الحيوية والنشاط والتدفق الذى لا يعرف الملال أو التعب .. والقامة القصيرة المقتحمة التى يطاول صاحبها بها غيره من العماليق باللسان الطويل وحسن البيان ونزق رعاة البقر ..

يعطيك من طرف اللسان حلاوة

ويروغ منك كما يروغ الثعلب !

كنا نقتسم اللقمة وتذكرة المترو وعلبة السجائر والعشاء الاخير .. وكان يؤثر كلانا أخاه .. يربط بيننا وعد مشترك من الضياع والالفة والغربة والشوق الى التجوال والمغامرة والسفر واقتحام الآفاق ..

وكنا نطوف بأحياء الاسكندرية العتيقة ليلة بعد ليلة نجوب ربوعها وحاناتها ومقاهيها وأفراحها مفلسين سعداء نتحايل على انفاق الليالى بشتى حيل الاذكياء وفنون الصعاليك والمحتالين .

وتعاهدنا الا نفترق .. ولم نفترق الا حينما تحقق حلمه القديم وطار ليعمل فى عواصم أوروبا وآسيا وافريقيا ..

وفى كل عام .. كنا نلتقى ايام العطلة السانحة وقد كبر الابناء والبنات والزوجات واشتعلت رءوس الاباء شيبا ! ..

وكم من مرة عقدنا العزم على اللقاء فى الخارج تتويجا لليالى الضياع فى الداخل .. واجتناء لثمرات الاحلام الليلية على شواطىء الاسكندرية ..

وكان اللقاء متاحا ولا مشكلة هناك .. فهو مسئول مرموق فى أحد مكاتب الطيران له سكن خاص وامتيازات .. ولا عائلة معه تشغله .. وكانت أمنيته الدائمة ان

أهبط عليه فجأة ذات صباح أو مساء .. هنا او هناك .. لا اقول له بعد خمسة وعشرين عاما من الصـــداقة والاخاء واجترار الاحلام .. ها أنا أطرق بابك ونلتقى بعد حين فى مهد الاغريق .. وعلى ضفاف السين او فى أعماق الادخال الاغريقية ..

وقد حدث ذلك . فعلتها وهبطت عليه فى ذات صباح من أيام الصيف مزودا بمواثيق العهد القديم مرتكزا على رصيد أيام شبابنا الاولى وليالى الكهولة وكل الوشائج الاصيلة التى تسرى فى العــروق مسرى الدم .. بين صاحبين درجا معا على درج الشباب والفتوة واجتمعا معا تحت قبة الجامعة وسقف المسكن الواحد .. وامتدت بينهما ليالى النصر الشاعرية ثم ليالى القاهرة الضائعة سنوات متفرقات حينا متعاقبات احيانا ..

وفجأة يتاح لهما أن يحقق كلاهما حلمـه القـــديم فيعمل فى عواصم العالم كما كان يحب ويشتهى ويعمل ذاك فى بلاط الصحافة والادب ويلتقيــان وقد تحققت الاحلام ودانت لهما الايام ..

وافترقا .. الى حين وعلى أمل فى لقــاء عابر يتوج احلام الليالى الضائعة ..

وجاء ذلك اللقاء ذات عام .. فماذا كان من صــاحبى الهمام ؟

كان ما كان .! ويومها عرفت أن دفء الصـــداقات القديمة يذوب فى جليد الغربة وصقيع الرحيل وان احلام الصبا والشباب تتبدد فى عواصم الضــباب .. وأن مواثيق الليالى الساهرة المحترقة فى مجامر الاوهام تتحول الى بقايا من رماد السأم وهشيم الأيام يمل فيها الصاحب صاحبه ويبدله .. وأن الشـــاعر القديم كان حكيما حين قال :

وليس خليل بالملول ولا الذي
اذا غبت عنه باعني بخليل !



عندما هبطت مطار أثينا كان أول شيء فعلته هـو الاتصال بصديقي المصري الحميم الذي يعمل في الخارج دائما .. وكانت أمنيته الوحيدة منذ زمالتنا بجامعة الاسكندرية منذ ربع قرن من الزمان هو أن يعمل بالطيران .. والتقي به ذات يوم في احدى العواصم الاوربية وتحققت الامنية .. وجاءت فرصة السفر وآن لحلمنا القديم أن يتحقق .. وأن نلتقي في مهد أرسطو وسقراط وهوميروس وسافوربة الشعر والجمال الذين طالما تذاكرنا كلماتهم وأشعارهم في سني الدراسة العامرة وليالي الاسكندرية الشتائية ..

وذهبت الى مكتب صديقي الفاخر القابع في ميدان السنتاغما « الحرية » ـ الشهير ..

وقبل أن أدخل عليه سمعت صوته يصرخ في التليفون وفي موظفيه كعادته في الصراخ عندما يتحدث فعلمت انه بخير وعافية ..

وأخبرته السكرتيرة الحسناء بأن هناك صديقا قديما قادما من القاهرة اليك .. أردتها مفاجأة له وسبقني هو بالمفاجأة فلطعني نصف ساعة لايعمل شيئا الا الصراخ .! وهدير الاوامر والزعيق بلا حساب ..

وقلت لنفسي ربما كانت أشغاله كثيرة .. وربما لم يعرفني بعد .. وكيف ؟ وقد التقينا منذ شهور قليلة في القاهرة .. ولم يكن لنا حديث سوى هذا اللقاء القريب في اليونان وشقته الفاخرة على شاطيء البحر ..

وفجأة خرج على صارخا كعهده واثبا معانقا .. لم

يتغير كثيرا .. نفس الوجه الابيض المشوب بالحمرة والعينين الخضراوين والشعر الاصفر المسدل على جبهته .. وطاقة النشاط التي لا تكل ولا تتوقف .. وتدفق الحديث الصاخب بعدة لغات في وقت واحد .. وتعانقنا .. وقدم بعض الاعتذار .. وبدات الاسئلة .

وبدا الامر وكأنني عبء ثقيل عليه او داهية داهمته فجاة واخذ يتعلل بشتى المعاذير .. أولاده واصدقاؤه معه في الشقة وحين جمعنا المساء في بيته اخترع موضوعا ملفقا يعني سرعة اخلاء الشقة .. لحضور موظف جديد ونقله هو الى بلد أخرى .. عدا شكوى صاحب البيت اليوم من كثرة دبيب الاقدام في شقته !..

قضيت الليلة على ملل .. بعد جولة في المدينة مع ولديه طالبي الطب والهندسة النابغين .. وقضى هو الليلة خارج البيت .. في بيت صديقة له يونانية تبدو كالشغالات في المطاعم والبيوت وتقيم مع ولدها الصغير الذي لا يكف عن الشغب والصراخ والبكاء .. في شقة صغيرة من حجرة واحدة بأقصى المدينة ..

ولم أطق العشاء حين دعاني اليه لديها .. بين ضيق المكان وسوقية محبوبته وعذاب « فيكو » المشاكس الصغير وصراخها المتواصل معه . واحتجاج الجيران أصحاب الشرفات المتاخمة من عربدة الولد وزعيق صاحبي وصراخ ام الصغير !

في الصباح الباكر .. حجزت في فندق « امونيا » حتى لا اكبد صديقي القديم عبئا .. وأوفر عليه اختلاق الاكاذيب والحيل .. ومررت عليه في مكتبه وادعي شيئا من العتاب والغضب على ذهابي الى فندق وبيته مفتوح لصديقه الاثير واخبرته انني لن اقيم سوى يومين واواصل

الرحلة وطلبت منه أن يحجز لي تذكرة الى « سكوبيا » بقطار الشرق السريع بالدرجة الاولى والنوم .. وخدعني صديقي حين قال قد يستغرق عشر ساعات من اثينا الى سكوبيا .. وكانه يسهل على مهمة مغادرة اليونان بأسرع وقت !.. ووجدت الموعد مناسبا لكي اركب قطار الشرق العاشرة مساء فاصل الثامنة صباحا فالحق افتتاح المهرجان في السادسة مساء ..

وحملني صديقي بعربته الى المحطة حتى يطمئن تماما بانني غادرت البلاد وخاب ظني .. حضر القطار متاخرا ساعتين .. واكتظت المحطة بالاف المسافرين الذين هجموا على القطار .. وكانه قطار الصعيد الشهير يحتلون الاماكن جزافا وبالقوة ..

وخذلني صديقي مرة ثالثة حين وجدت التذكرة عادية وبلا نوم وصار لزاما على أن أبحث لنفسي عن مكان .. ولم اجد سوى طرقات القطار اتسكع فيها .. ونوافذه اطل منها على كتل الظلام والجبال التى يسير في قلبها القطار .. ويزحف كالثعبان .

وطافت بذهني صور الطفولة القديمة .. وتذكرت كل ماقراته في الروايات البوليسية عن هذا القطار العجيب الذي يطوف بلاد العالم وعواصمها بينما لم يتجاوز القطار في حياتي رحلة من دمنهور الى قريتي أو الى الاسكندرية او الى آخر حدود مصر الصحراوية الغربية السلوم .. وكيف يشق ذلك القطار الجبال شقا ويسير فوق البحار بسرعة البرق .. ويكتشف فيه « أرسين لوبين » أغرب الجرائم ويتعقب « هولمز » المجرمين الهاربين والطامعين في خزائن النقود وخطف الجميلات ..

وحلمت بقطاع الطرق وفرسان اللصوص بالرغم من

الحراس الفولاذيين . ينحدرون من جوف الظلام ويطلقون سيلا من الطلقات النارية فى الفضاء تتكفىء لو قعها فتاة شقراء على صدرى تحتمى بى .. فينتفض قلبى ويغلى الدم فى عروقى .. واتخيل نفسى ذلك الفارس النبيل الذى يهبط من قلب القطار معتليا ظهر جواد أشهب بغرة فوق الجبين .. ليداهم اللصوص وينقذ الاميرة أو البطلة الجميلة ويردفها خلفه على صهوة جواده .. وينطلق مترنما بقصيدة شعر ..

ولكن شيئا من ذلك لم يحدث قط .!

كان الخيال أجمل من الواقع .. وكان سبيلى الوحيد لاختصار المسافات وقتل ساعات الملل ونسيان وجه صديقى الكذوب ..

فالقطار يتوقف نعم ويتعثر بين حين وآخر .. لا لان قوافل اللصوص تهاجمه أو توقفه .. ولكنه تماما مثل قطار الصعيد فى بلادنا .. فهو مكتظ بالامتعة وبالمسافرين كل يحتل مكان الاخر .. وهو يتسكع فى كل المحطات بلا سبب وكأنه « قشاش » الصعيد الليلى ..

وجوه وسحن مختلفة الجنسيات تتراكم فى ردهات القطار .. بنات وشبان يركبون القطار منذ ثلاثة شهور يطوفون بالعالم فى ملابسهم الرثة يستلقون على الارض ويدخنون « المخدرات » والمارجوانا .. فى السجاير والبايب وعلى البيرة .. مفلسون .. صعاليك يشاركونك ساعات الغربة والملل .. ولكنهم عشاق يفترشون بعضهم بعضا فى ممرآت القطار ودواوينه !..

تسللت الى عربة الطعام .. بعد لدغة الجوع والبرد .. ورفض عمالها تقديم اى طعام لى ولآخر معى .. فقد جلسوا يأكلون ويشربون غير عابئين على عادة اليوغسلافين

واصلت الوقوف خلف زجاج النافذة .. بعد أن أشرق الصباح واشرقت الشمس قليلا فى الظهيرة .. ثم غابت مع الغروب البارد النسمات ووراء الجبال التى لا تحدها الابصار .. وغابت معها لدغة الجوع الى حين بعد أن قايضت فتيات القطار بجرعات من « آلاوزو » اليونانى الرهيب مقابل لقيمات مطلية بالزبدة والجبن !

لم يقطع القطار المسافة فى عشر ساعات كما قال صديقى المراوغ .. بل قطعها فى سبع عشرة ساعة .. فوصل العاصمة « سكوبيا » فى المساء التالى .. وقد فات موعد الافتتاح ..

وما أن وقف القطار ونزلت الى رصيف المحطة حتى تجمدت من البرد ..

كان المطر ينهمر رذاذا جليديا وكنت بملابس الصيف فوقفت مكانى جامدا مرتعشا لا أقوى على نزع احدى يدى لفتح حقيبتى والتقاط بعض الملابس الثقيلة حتى صادفنى طالبان من السودان وسألانى عن وقفتى هذه وفهما الأمر ونابا عنى فى فتح الحقيبة واخراج بعض الملابس الثقيلة تدثرت بها وقادانى الى مقر « أتحاد الكتاب » فى الشارع المجاور للمحطة تماما شارع مكسيم جوركى ..

وجدت « ماريانا » الحسناء الرقيقة .. فى انتظارى وما أن رات رعشة البرد وحبات الجليد حتى جاءت باطباق من الحلوى واللوز والملبن وعدة أشربة معتقة بيضاء وصفراء وحمراء شربتها تباعا حتى شعرت بقليل من الدفء وكثير من الجوع والرغبة فى الفراش الوثير ..

واتصلت المرافقة الحسناء بادارة المهرجان .. لتعلنهم

بوجودى في حالة برد واعياء فقرروا ان أقضى الليلة هذه طلبا للراحة ثم اسافر فى الصباح الى « أوهريد » حيث المهرجان ..

ورافقتنى الى فندق العاصمة لاتناول عشاء ساخنا وآوى الى الفراش علنى اظفر بساعات من النوم بعد هذا الارق الطويل .. دون جدوى !

***

فى الصباح الباكر .. تعجلتنى « ماريانا » الحسناء وانا أتناول طعام الافطار فلم اكمله واكتفيت بكوب من عصير البرتقال .. وجرينا معا لنعبر نهر « فردار » بالاتوبيس المنطلق الى مقر المهرجان .. ولحقنا به فى اللحظة الاخيرة .. وانطلق يشق طريقه بين الجبال والوديان .. دون طعام أو تدخين ..

وتوقف الاتوبيس عند قرية غافية فى المروج الجميلة تنبعث من مطعمها الصغير روائح الشواء الشهية .. واكلنا شواء الصباح وشربنا أشربته وقهوته وانتعش القلب وتدفق الدم فى العروق وواصلنا الرحلة .. حتى وصلنا « أوهريد » الجميلة لاجد صديقى « اسكندر » مرافق العام الماضى فى انتظارى لتحملنا العربة فورا الى الفندق البرتقالى فوق الجبل المطل على شاطىء الادرياتيك مرة أخرى ..

لنكرر نفس جولة العام الماضى .. رحلات شعر ولقاءات أدبية فى مختلف الاماكن المتناثرة فى حضن الطبيعة الساحرة .. وعناق الوجوه المسافرة من أجل الشعر والفن لينتهى المهرجان باحتفال كبير فى فندق « الكونتيننتال » الكبير حيث تحدث الشعراء وتبادلوا انخاب اللقاء ..

والقيت كلمة .. هنأت فيها الشاعر الفرنسي الكبير « جلفيك » بالجائزة التى تنبأت له بها العام الماضى . وراهنته على نخب عظيم على حسابه أن فاز !.

وامتدت مائدة غداء ضمت المئات وقدمت أفخر الاطعمة والاشربة وصنوف الحلوى والفاكهة ..

ووقف مدير المهرجان يعلن نهايته ويوجه الدعوة لاربعة من شعراء العالم المشتركين فيه للاقامة في العاصمة « بلجراد » أسبوعا آخر ليشاهدوا معالمها ويلتقوا بشعرائها وادبائها ..

وكان الشعراء الاربعة هم شعراء المكسيك والهند واسبانيا ومصر .. حيث قضينا أسبوعا فى العاصمة اليوغوسلافية وضواحيها وفى صحبة أدبائها وشعرائها . لم يعكر صفوها الا وجه جليدى سميك من الشعراء لم يتلق نفس الدعوة !

عدت الى أثينا مرة أخرى بالقطار وكانت رحلة عذاب ثانية زادها طولا وسأما توقف القطار ساعات طويلة فى « سالونيكى » الحد الفاصل بين يوغوسلافيا واليونان لالتقى بوجه آخر وجه صديقى القادم من القاهرة رفيق الوطن والرحلة .. ولنتسكع أياما فى عاصمة الاغريق ونطير بعدها الى باريس ..

لقاء تحت الراية
الحجرية الشمطاء

وكأنما انشقت الارض عنه فجأة .. ! تركته في القاهرة منذ أيام .. فاذا به أمامي بقامته الفارعة وابتسامته الرائعة .. في منتصف الليل في « ديفيني » الضاحية الخضراء بأطراف عاصمة اليونان حيث أقيم مهرجان الموسيقى والكروم . الذى يعقد كل عام وتحتشد له العاصمة العتيقة ووفود السواح والزائرين .. على مدى ثلاثة شهور من السهر المتواصل والعزف على مختلف الاوتار طوال الليل وحتى تباشير النهار حيث تراق أنهار النبيذ الحمراء دون الوردية او البيضاء وتنسكب بلا حساب من خلال الصنابير والنوافير النابعة من مناقعه المعتقة المتدفقة في حدائق الكروم الحبلى بالعناقيد .

وتصدح الموسيقى ورقصات الشعوب من كل فج واغنيات الحب والمرح والغربة وتعانق الخصور والصدور في حلبات الرقص ودوائر الايقاع .. يكاد أن يميد بها المكان الممتد في ساحة من الخضرة والاشجار والأزهار وجداول الماء تبلغ عشرات الافدنة من حقول قريتنا .. وكأنه رئة المدينة النقية الخضراء ترسل أنفاسها العطرة من بعيد لتلطف من دخان المداخن ..

وقد تناثرت في هذه الافدنة الشاسعة المطاعم والمشارب الصغيرة وحوانيت البيع والشراء والعاديات التذكارية .. وأكشاك التليفون ودورات المياه والمقاعد الخالية وذوريات رجال الامن والبوليس والجميع يفترقون وينهلون

مايشاءون بلا ثمن ويملأون القوارير بلا حساب !

والوف المخيمات والمعسكرات الشبابية الصغيرة اتخذها الفتيان والفتيات من الصعاليك والرحالة وعاشقى الترحال القومى الكبير الذى لا يكلفك قضاء الليلة فيه سوى « دولار » واحد رسما للدخول ..

وما كدت أدلف من بوابته واتلفت حتى رمقته من بعيد مبتسما أمامى .! وكأننا نلتقى صدفة فى شوارع وسط المدينة حيث يسكن كلانا . أو يقتنص بعضنا البعض فى حوانيت آخر الليل .

وتصايحنا فرحين وقلت له وأنا أعانقه :

ــ كيف انشقت عنك الارض هنا ؟

وقال لى :

ــ لا غرابة .. بحثت عنك حيث يجب ان ألقاك ..

وجدتك كما أجدك فى القاهرة تعس فى دروب المدينة فالتقطك من دهاليزها الدفينة !.

وضحكنا كثيرا .. كان سعيدا فخورا وقد صدق حدسه وكأنه اهتدى الى فك رموز « حجر رشيد » قبل ان يهتدى اليها « شامبليون » !

كان صديقى هذا الوجه الحميم الذى سقتنا معا جذور القرية وليالى المدينة وغذتنا معا طموحات الفن وغربة التطلع الى غد أجمل وانبل .

لم يكن بالوجه الدميم كصاحبى القديم الذى حدثتك عنه فى الحديث السابق .. ولكنه كان طروبا الوفا ضحوكا ندى اللسان والكف تحلو صحبته وتطيب رفقته بالرغم من ديباجته وولعه بالجدل العقيم .. وصرامته التى تحمل وراءها قلب طفل غرير ! .

وكنت معدا حقيبة يد صغيرة ملأتها بالقوارير الفارغة

التى ملأتها بذورها من النوافير والصنابير الجارية بدم العناقيد التى لا تكف عن الانهمار والعطاء ليغترف منهـا الواردون .. وخبأتها فى ظل شجرة كبيرة نائية علمتها بخيمة عالية لعشاق توارو عن عيون الراصدين وأشعلوا نارا هامدة كنار « ابى الحباحب » ما تكاد تتوهج وتشتعل حتى تنطفىء وتصبح لهبا خامدا لاهثا الدخان .. ولكنه شبح نار يؤنس غربة الساهرين ويدرأ شبهة الناكرين .. فدعوت عليهم بقول شاعرنا :

سقى الله ارض العاشـقين بغيثـه

ورد الى الاوطـان كـل غـريب !

وانطلقنا .. نطـوف فى المكان الذى يشبه فى انفساح مروجه قرية كبيرة .. تلتف فيها الاشجار والاغصـان وتكثر التلال والربوات والخمائل وقد تناثر العشاق فى ظلها .. وخلف الاكمات وأحضان الروابى .

وحملت « حقيبتى النبيذية » من مكانها المأمون .. وصديقى يجادل ويستنكر ويهرف وانا أقول له ونحن نجر الخطى عائدين :

— ستكون لنا زادا فى باريس يوفر علينـا ثمـن الماء ! .

خطرت فكرة السفر الى باريس فجاة وبلا ترتيب حيث أغرانى صديقى الحميم بأن الحق به هنـاك فى اليـوم التالى .

وكان ذلك مستحيلا .. وتم ذلك المستحيل بأن توفرت لى قيمة تذكرة الطائرة .. من القاهرة الى بلجراد بعد ان استعملت القطار ذهابا وايابا بدلا من الطائرة ... وحصلت على تأشيرة دخول باريس بمعاونة كبرى مـن

سفارتنا المصرية هناك .. بالرغم من استحالة ذلك فى يوم او أسبوع وحصلت كذلك على تذكرة مخفضة ضمن فوج مسافر .. واصبح كل شيء ميسورا .. وتسكعت ليلة السفر حتى الصباح وحيداً فى أعماق « آلبلاكا » الحى اللاتينى الساهر وغفوت فى ظل بعض النافورات والغابات ثم آويت الى غرفتى بالفندق قابعا فى الفراش لاطير فى الصباح الباكر الى باريس .. والتقى بصاحبى الحميم فى الموعد المحدد ..

وحيث تواعدنا أن نلتقى .. تحت مسلتنا المصرية .. فهذه أول مرة اسافر فيها اليها ولا علم لى بمعالمها ولا لغتها بعد .. وأولى بنا أن يكون اللقاء فى رحاب قطعة من بلادنا تتوسط أكبر الميادين الفرنسية ولا يضل العنوان اليها وافد غريب !

اهزز مسلتنا تساقط من حجارتها شعاعا من بلادى لا يغيب ولن يغيب .

والرآية الحجرية الشمطاء فى أحجارها نبض ستعرفه دمائى والعروق !

وكنت قد أخذت أوتوبيس المطار من مطار « أورلى » الى « الانفيلد » ثم رحلة داخل المترو الأرضى الى ميدان الأوبرا .. حيث تركت حقائبى فى مكتب الطيران .. بعد ان أرهقنى حملها طوال تلك المسافات .. ومن أمام الاوبرا مباشرة لاح من بعيد ميدان « الكونكورد » الشهير حيث ترتفع مسلتنا العجوز .. وكيف لا تكون عجوزا شمطاء وعمرها سبعة آلاف عام ؟..

وفى الثانية تماما .. كنت جالسا على مصطبتنا الحجرية التى ترتكز عليها مسلتنا الفرعونية ساطعة كالنخيل نحيلة كعود القمح شامخة كذرى الهرم ..

كأنها نخلة الفقراء المهاجرة او منارة الغرباء لملاح تائه قذفت أمواج النهر بزورقه الى شاطىء مجهول ..

ولاحت لي ـ مسلتنا المصرية كالام المغتربة على ارض الوطن تفتح لي ذراعيها كأنها تشتم ريح الضفاف تفوح من ثياب أحفادها العابرين ..

وقد ارتفعت قامتها الشماء في ميدان « الكونكرد » الشهير ومعناه ميدان الوفاق .. وفيه أعدم لويس السادس عشر في أتون الثورة الفرنسية وذكرت قول شوقي أمير الشعراء وهو يتريض في حدائق « اللوكسمبرج » وغابات ابو للون ناعم البال والخيال يترنم فيقول :

أميدان الوفاق وكنت تدعى
بميدان العداوة والشقاق
اتدرى أى ذنب انت جان
وأى دم ذهبت به مراق
هوى فيك السرير ومن عليه
ومات السائرون وانت باق
اصابوا واستراح « لويس » منهم
لذا سميت ميدان الوفاق

ومن بعيد اقبل صديقي غير مصدق .! وجدني جالسا في انتظاره حسب الموعد تماما .. وانطلقنا الى الميدان الكبير ومنه الى الشانزيليه وعبرنا نهر السين ..والكوبرى العتيق ومشينا نعانق معالم باريس الاولى حتى كلت الاقدام فارتمينا في أول مطعم .. حتى اذا امتلأت المعدة وطاب لنا الاسترخاء .. قمت فأحضرت حقائبي الى فندق « السلام » في حي « المونبرناس » العتيق .

حي جبل « مونبرناس » احد آلهة الاغريق المشهور بعراقته .. وبمقهى « الدوم » « القبة » الشهير بندوته

والذي كان ملتقى أندريه جيد وجان كوكتو وسارتر وساجان .

وفي المساء اكملنا جولة التعارف الخاطفة بمعالم العاصمة الرشيقة .. جسنا عبر الحدائق المترامية .. شباب وبنات في كل زاوية ومنعطف .. يتراشقون بالقبلات عند اشارات المرور .! ومجموعات أخرى يحملون على ظهورهم الامتعة الثقيلة وينامون في أي مكان في العتبات والارصفة وأسوار السفارات ومقاعد الحدائق الرخامية ومخادع العشب الاخضر .

مشينا حتى المحطة .. القديمة وتجولنا داخلها .. ركبنا المترو تحت الارض الى محطة « أودين » وتهنا .. كنا نرتعد من البرد والوحشة .. مدينة صامتة تحت الارض لا ترى فيها الا بعض الوجوه السوداء والغريبة تحملق في صمت . وتتعقب خطوتك في صمت وتستل من تحت المعطف سكينا لتسطو عليك ..

كان صاحبي عجولا ملولا .. قال لي : ربما طعننا احدهم بمطواة . ولا أحد يحس بنا ونصبح شهداء بلا قضية !.

غادرنا النفق الارضي مهرولين لاهثين بحثا عن تاكسي مابين سائق سكران مترنح الى آخر أشد سكرا وترنحا وقد أوغل الليل خريفي النسمات بارد الخطوات حتى عدنا الى الفندق مكدودين مرهقين ..

نامت باريس ولم أنم ..! فتحت النافذة بالرغم من لفحة البرد أطل على الشارع الكبير ، عبثا أنشر الاوراق واطويها ، لا شيء سوى التأمل القهري ، والمبعثر هنا وهناك يحاول جهده استيعاب الصورة واختزان الرؤى وتنشيط الذاكرة المبددة في سراديب الضياع

والشتات أوشك الصباح .. وشخير صاحبى يعـزف الـتناحية الشروق .

افترشت الارض وتركت له الوساد الاثير أملا فى غفوة مختلسة .

ها أنت ياباريس نائمة .. وها أنا ساهر الـكلمات والورقات كالسيف المسلط فوق احشاء الظلام ؟

وضفائر الشفق الخريفى النبيل تثاءبت خلف الضفاف تذوب فى السين العريق .

يانهر كن لى النيل والربوات والنخلات والهرم العتيق .

خذ من مسلتك النحيلة اعطنى دفئا يدثرنى فبردك واغل حتى العظام !

وجه مصر فى اللوفر

الايام تنفرط كالماء من بين اليدين .. هاهو اليـوم الخامس من أيام الرحلة الباريسية وأنا ألهث فى احشاء العاصمة الجميلة ، يكاد البرد يجمد الاطراف ونوبات الصداع الشتائية الرهيبة .. ومحاورات الشمس بين الظهور والاختفاء ماتكاد تسفر عن وجهها وتبعث الدفء .. حتى تحجبها أوجه السحب الداكنة فتبدو الحياة رمادية شاحبة ، وتزداد باريس اغراء وسحرا .

مدينة تعشقها منذ اليوم الاول .. تحتفظ بطابعها الخاص وملامح تاريخها ..

فى الحرب الاخيرة سلم الفرنسيون باريس بلا مقاومة .. وتقبلت عار الاستسلام على أن تدمر مدينتهم الجميلة لتظل عرسا زائفا اقيم على الدم المسفوك .

تكاد تتساوى البيوت فى الارتفاع واللون لا يوجد فوضى فى قامات العمارات ولا اعتداءات على شاطىء السين بسبب انسيابه الهادىء الرقيق وقد تراقصت على امواجـه

الزوارق والمراكب المشعة بالضوء والموسيقى .
وكانت أولى الجولات في الصباح الباكر في رحاب « اللوفر » درة باريس المتحفية .. وقد امتدت امامه حدائق « التويلري » الواسعة الخضراء .. تشغل ميدانين كاملين على نهر السين .. وحيث كانت متنزه الملوك ومقر القصر الفاخر لأكابر اباطرة العرش الفرنسي العريق .

دفعت عشرة فرنكات رسم الدخول لافاجأ باسم مصر في المدخل الاول امامي على لافتة بالخط العريق بينما تمدو تمثال « شامبليون » المدخل وكانه صاحب الحضارة المصرية وحده ...

ويشمل جناح مصر طابقين ونحو خمس عشرة قاعة مرصعة بالتماثيل والحلى والاواني والنقوش والخطوط والقاعد والاسلحة القديمة معروضة بشكل فاخر جدا لا تعرفه مصر صاحبته الشرعية ! وافواج المتفرجين مبهورة امام كل حجر واثر ، طفنا ساعتين بجناح مصر وقد اكتظ بغيرنا من الطائفين .

الجناح الآخر للفن الفرنسي ، لوحات من القرن الخامس والسادس للمشاهير القدامى امثال « دافيد » السقوف عبارة عن لوحات ناطقة ، الجدران والحجرات وعطر النظافة والهدوء يعبق في المكان ويلفك بعطر الرهبة والجلال .

كيف كان الملوك يتاملون تلك السقوف وهم يتناولون العشاء على الموائد الملكية في قاعة الطعام التي تبلغ مساحتها فدانا من الارض ! ..

لقد التوت رقبتي واصابني الدوار من كثرة التطلع الى السقوف وتامل رسومها ! .. اي بذخ وترف كان ؟ وكيف

كان الملوك يتنقلون داخل حجرات القصر ؟.. للاطمئنان على اطفالهم الامراء مثلا واقل قاعة تحتاج الى تاكسى . لاجتيازها .!

وأخيرا .. وقفنا خاشعين أمام لوحة « الموناليزا » الشهيرة لدافنشى وكأننا واقفون فى محراب .. حيث وضعت وحدها .. فى اطار زجاجى مضىء .. وأحيطت بأسوار من الحبال ووقف الالوف يتأملونها ويطوفون بها كالحجيج وهى تبتسم منا ابتسامتها الشهيرة ..

القاعات لا تنتهى مكيفة الهواء مزودة بالمقاعد والخرائط والكتب ورجال بوليس .. وفتحت قاعة الملوك فى موعدها المحدد « قاعة ابولون » حيث رصت التيجان المرصعة بالجواهر فى توابيت الزجاج والنور : تاج لويس ، تاج نابليون وهو اجملهم ، تاج شارل ، ثم الاوانى والقنانى واكواب الشراب الفضية والذهبية النادرة والدروع العسجدية الذهبية والخوذات ولجم الخيل وكراسى العرش ولوحات بالحجم الكبير للملوك والملكات ومستشاريهم وعشيقاتهم تزين الأركان وتحكى وتحكى ..

وتستمر الجولة فى انحاء « اللوفر » ست ساعات على الاقدام ، بدون تدخين او طعام .!

• فى المساء واصلت الطواف بالحى اللاتينى الشهير .. حيث كان يعيش فان جوخ وجوجان ولوتريك ينفقون النهار فى الرسم ويعودون الى بيوتهم عبر دروب الحى العتيق .. ويعود اسم المكان لجيل القديس الشهير « مارتن » أو مارتنيج المكان يضج بالحياة مزدحم الازقة « والحارات وربوة عالية مرتفعة الدرجات وحوانيت وبارات ومطاعم ومعارض رسم ورسامون من كل لون يرسمونك على الواقف، ومغنون يحملون الجيتار ويتأوهون

.. وشباب يبيع كل شيء وأي شيء مصريون وعــرب يفتتحون محال الفطائر والفول والكباب كنيسـة « القلب المقدس » حضرت بها قداس العشاء التماثيل والزخارف والقباب والبلاط وزجاج النوافذ وأجهزة تشرح لك كل شيء من الكنيسة مقابل بعض الفرنكات وبكل اللغات .

الترف الباذج يحلق في سماء الكنيسة على ايقاع التراتيل والاناشيد ترف منحدر من عصر الملوك البيض ونزيف مستعمراتهم من دم السود في افريقيا درة التاجين الفرنسي والانجليزي .

عبرت القنطرة القديمة على كوبري السين ، أجر قدمي جرا الى فندقي البعيد .. وفي الصباح الباكر حملت حقائبي مرة أخرى الى « الحي اللاتيني » بحثا عن فندق رخيص في الحي الذي تتوافر فيه الحيــاة الليليـة الرخيصة .

وبعد جولات قليلة في « السان ميشال » والرجوع للخرائط المجسمة فوق الارصفة والميادين .. والطواف في الازقة والدروب .. حارة الفن ، حارة القديسـة مادلينا شارع سان جورج ، فكل الفنادق محجوزة وعثرنا على فندق في نهاية الشوارع الجانبية للسان ميشال .. رخيص نظيف يمتلكه جزائريان رفضا التحدث بالعربيـة وكأننا من سلالة الفرنسيين الذين احتلوهم قرنا من الزمان وليس من سلالة عربية مثلهم .. وكان لابد من تحمـل جفاء المعاملة وسوء الخدمة ، مقابل خفض النفقــات والحصول على وجبة شهية رخيصة هي « ســاندوتش الصاروخ » الملآن بالسلطة والبطاطس والجبن والقشطة والخص في حجم ذراع طفل صغير وبخمسة فرنــكات فقط .

رودان عاشق السين النبيل
والسجيني : عاشق النيل الأصيل

طالت الساعات وقوفا في طوابير الانتظار الطويلة التي احتشدت منذ الصباح الباكر أمام « القصر الكبير » حيث يغفو جدنا الاكبر رمسيس قليلا في قلب باريس بالرغم من البرد والمطر .

عشر فرنكات رسم الدخول لقاء لحظات في رحاب الفراعين .

وبالرغم من انني واحد من احفاد الجد الكبير الا انني ضحيت برسم الدخول وتكبدت العودة ماشيا على الاقدام لالقي نظرة على الوجه العريق وعلى الوجوه العديدة الاخرى التي اقبلت من كل فج تطوف به طواف العشق والانبهار .

وقد تحول القصر الباريسي العتيق الى مهرجان فرعوني مضيء من بهو المدخل حتى باقي المداخل والادوار

في المدخل مكتبة فرعونية متكاملة .. كتب وخرائط وصور والبومات وشرائح ملونة ولوحات بمختلف الاحجام واللغات الا اللغة المصرية ! والا الكتب المصرية ! ثلاثة طوابق يشغلها « رمسيس » في قاعات مكيفة الهواء والاضواء التي تشع من الاسقف والزوايا والاركان واصداء ناي وايقاع دف وخرير ساقية وشنادوف وشقشقة طيور وموال مصرى جريح وعطر الضفاف يحيل المكان الى مهرجان .. ويكاد يخطف ابصار الناظرين المبهورين بروعة التاريخ .. رأس رمسيس الذهبية في خيمة من زجاج

مضىء وتماثيله ومهندسوه وأفراد عائلته وعربته الحربية وسهامه المسهومة والأساور والخواتم والقلادات والكراسي الملكية والاواني والحلي والعقود والاقراط وآلمكاحل والمراود والتوابيت والملكات بالحجم الطبيعي الذهبي .. تمثال الكاتب المصرى .. صقر حوريس الذهبي .. يكاد يرفرف بجناحيه ويطير .. غصون الخضرة تتسلق الجدران .. حراس .. مراقبون وعيون سحرية ترصد خطواتك ودار سينما تعرض أفلاما عن مصر القديمة واكثر من مائة قطعة اثرية مصرية في باريس .. يتألق من خلالها وجه مصر ــ عاليا مضيئا .. وقلت لنفسي وانا اغادر المكان : هذه آثارنا تدل علينا .. فلماذا لا تعرض فى بلادنا بهذه الروعة وهذا الجلال ؟..

الصباح العاشر فى باريس :

سماء باريس الرمادية تحجب وجه الشمس وتنشر ضفائر الضباب على صدر الصبح الجديد والرذاذ الدؤوب يتساقط ويهمي وكأنه دموع الشمس المختنقة خلف أسراب السحاب ويسكب فى القلب رعشة خفية لا يعرفها الا قلب الغريب وبدا كل شيء مغتسلا بماء السماء .. ولاح ميدان « الانفيلد » الكبير لامعا نظيفا وفى وسطه انتصب قصر عتيق كان هو مرماى . ومقهى مجاور يحمل اسم «رودان» اويت اليه من المطر مع قدح القهوة الفرنسية حتى كف المطر فدلفت الى المتحف الكبير .

الازهار من كل لون فى حديقته تستحم بقطرات الرذاذ وتنشر عبقا واريجا يشدك الى بعيد حيث كانت كف صاحب هذا القصر تسقي الازهار كل صباح ، وتنحت الصخر والاحجار كل مساء .

كف « شوبان » هذه .؟ مست السمع والبصر ام انملات

من اللظى فوق أطرافها ثمرت انها كف « رودان » فتى باريس وفنانها الكبير ، وهذا هو بيته الذى صار متحفا غير بعيد من مقبرة نابليون الزجاجية فى مدخل الانفيلد وكأنما جمعتهما عبقرية الجوار هذا بجسده غافيا مع سائر العظماء وذاك بفنه حيا يحج اليه الاشباه ..

واطل من بعيد وجه صديقى العاشق النبيل بلحيته التى تشبه لحية رودان .. أطل وجه « جمال السجينى » من ضفاف النيل وكأنه يعيد على مسامعى نفس الكلمات فى لقائنا الاخير :

« ان رودان فى أعماقى .. لايفلت أبدا خاصة تمثال المفكر والليلة ورقصة الفالس » .

وها أنا ذا أمامها جميعا أتأملها واتطلع الى وجه صديقى الغائب البعيد وأنا فى بيت صاحبه الذى فى الاعماق ..

هاهى صورة « رودان » تتصدر القاعة فى لوحة كبيرة بالالوان رسمها « بلانش » وهاهو تمثال « رودان » الذى نحته عاشق فنه .. « فلاديل » .. وهاهو تمثال المفكر يكاد ينطق بالتأمل والعكوف العميق ..

أى شبه بينهما عجيب ؟ نفس النبضات والملامح والاحجام . تماثيل بحجم الرجال ورءوس لاصدقائه الفنانين ورسائل الاصدقاء من الفنانين والشعراء ، حتى اللوحات التى تغطى الجدران فى بيت رودان بباريس وبيت السجينى فى القاهرة تغلب عليها نفس الالوان البرتقالية والسوداء ورماديات شطحات الخيال . أى ذراع تلك التى نفذت الى الرخام الابيض والحديد والبازلت لتبعث فيها الحياة ؟

كم أرقنى هذا السؤال وانا ارقب السجينى يكاد يغوص بجسده كله داخل كتلة الحجر ليحولها الى تمثال

حتى ليكاد ينصهر معها فى لحظات ..

وكلما رفت ذراعه بالازميل داخل الصخر الاصم اشفقت على تلك الذراع التى يضنيها الالم الشديد ولكن صاحبها لا يبوح فهو وحده الذى يعشق الصخر والحجر والذى شق قلبه ليطعم الطين والنهر .

اى سر يكمن فى كف هؤلاء العباقرة لتلمس كتل الجماد الصماء فتبث فى اعطافها روح الحياة ونبض الاحياء ؟

كانت الامسيات الدافئة مع جمال السجينى جانبا جميلا آخر فى حياته كفنان كان يتحول الى عاشق أضناه الوجد وسط حبيباته من العرائس ومئات التماثيل التى تملأ زوايا غرفته وأركان بيته ، يحاورها ويناجيها وهى تصغى لعاشقها الغريب .

كان الفن عنده خلية واحدة الأيقاع . ولكن النسيج يختلف مابين اللحن واللوحة والقصيدة وكان يحفر أبيات الشعر فوق صدور التماثيل وتحت أقدامها يؤكد بها وحدة هذا الايقاع .

عازف الصخر والحجر :

اى عشق غريب يضنى قلوب العشاق ويتطلب عضلات المصارعين لا رقة الأطفال . وكان السجينى طفلا فى الستين يشع بالصفاء والدهشة والجمال وذراع لوى بها عنق الصلد والحديد فانشطر ولان وانكسر . !

كان شاعرا قايض الحروف والقوافى بكتل الصخر والجرانيت وترك العزف على الأوتار ليجيد العزف على الاحجار :

شاعر غير أنه
ينحت الشعر فى صور

كلُّ جلمود صخرة
صار في كفه وتر
وامتزجت الصورتان ، صورة رودان فارس التماثيل بوجه الفيلسوف ولحية الصوفي ، وايقاعات العاشق .
شاعر فر من دوحة الشعر الى كهوف الجبال ليشعل النار في عروق الصخور ويعزف بريشته موسـيقى الألوان ..
على اليمين جناح كبير فخم زجاجي مكيف منسق .. على جدرانه لوحات رودان البرتقالية في اغلبها والسمراء في اغلبها الآخر ..
المرأة شغله الشاغل .. بل الجسد حين يتجسد في رجل أو امرأة ..
« بودلير » يحتلُّ مساحة كبيرة من الجدران .. ديوان « أزهار الشر » بمسوداته وبخطه وامام كل قصيدة رسم لرودان ثم تمثال بودلير وفكتور هوجو .. وصـور « كليمانصو » .
التماثيل تكاد تنطق .. والقبلة الرخامية تكاد تسيل من ضلوع الحجر والبازلت التي شكلها رودان بأنامله وسكب فيها من روحه ، تنتهي صالة التماثيل الأولى ، الى جناح جانبي به بيوت زجاجية مضيئة بها الخطابات والبرقيات والكتب المهداة لرودان من أصدقائه وشعراء عصره ومسودات اعمالهم .. رسائلهم اليه امثال :
أميل زولا وريلكه ومالارمريه ولويس ستيفنون وكورني ورومان وموزارت رولانت وتشـارلس موريس . أكثر الخطابات من ريلكه وموباسان وأبو ليينير وبودلير والفونس دوديه وانا طول فرانس وجوستاف مولر .



جناح آخر تتصدره لوحة بالالوان لرودأن .. وقور هادىء لا تبدو عليه البوهيمية بالرغم من ولعه بالخطوط النسائية وتصوير المرأة فى مختلف الاوضاع ..

لوحة اميلي بلانش وتمثال « جلا ديل » ثم تماثيله هو التى نحتها وأشهرها آدم وحواء وهى مستلقية عارية تدير له ظهرها وقد أنهكته التجربة .. ثم تمثال فرنسا شابة يافعة نضرة تتجسد فيها ملامح « جان دارك » وتمثال « رقصة الفالس » « وايفا » تكررت فى تماثيله ولوحاته معا ــ حاملة الجرة ــ حاملة الصخر ــ بجماليون وقد دفن وجهه فى صدر فتاته التى خلقها .. رأس موزارت .. وجوستاف مولر ــ تمثال الامومة ــ المقاومة ــ مدام رودان ــ اميليا رودان ابنته الى آخر قائمة التماثيل بحجم الرجل والمرأة الطبيعى من الرخام الابيض والاخضر الزاهى .

وتماثيل أخرى صغيرة منمنمة للطفولة والامومة والمرأة .. تتألق عبر غابات من الرموز تمر بها بأعين أليفة .

فى ركن من القاعة « البيانو » الخاص به . خشب عتيق عليه تمثال ناصع البياض من المرمر لامرأته .. والوف المشاهدين من كل الجنسيات .. ونشرات ولوحات وكروت سياحية وكتب ملونة وأقلام .. بكل اللغات وبمختلف الاسعار ورسم دخول قدره خمسة فرنكات .. وعائد مادى لم يظفر به رودان وهو حى .. ولم يظفر به السجينى حيا أو ميتا !..

وعبرت الحديقة الفيحاء ، وقد هبت رعشة البرد والضباب ، وفاحت زجاجات عطر بودلير قوية تنفذ الى المسام وكأنها تخترق الزجاج الناعمة والذكريات القديمة.

ودار فى رأسى عطر قديم لذكريات آخر الامسيات مع

السجينى وهو يتحدث عن رحلة العمر الذى يقرب من ثمانين تمثالا .. وكأنها ثمانون قصيدة يحفظها عن ظهر قلب ..

رحلة بدأت من حارة « الطشتوشى » بحى باب الشعرية حتى يلتقى بمختار ويوسف كامل فيضعهما فى الاعماق بجانب رودان .. وحتى تعرض أعماله فى متحف بوشكين بموسكو وبكين وروما واثينا وباريس .. وانتهت فى أحد فنادق مدريد .

وتذكرت كلماته وهو يقول وكأنما يملى وصيته الاخيرة .. قبيل رحلتى لباريس ونصيحته لى بأن أرى متحف رودان وأذكره هناك :

كنت أنظر لجبل المقطم واتمنى لو انحته كله ..

والآن أنظر اليه وقد تحول الى مقابر يرقد فيها أهلى .. وجاء الدور على لأرقد بجوارهم !

ولكنه اختار أن يغمض عينيه بعيدة عن سماء مصر ، هناك فى موطن رفاقه الرواد ، جويا وبيكاسو ولوركا . حيث كان يستعد لاقامة معرضه الاخير فى العاصمة الاسبانية « مدريد » .

حيث سقط السجينى فجأة وعلى غير موعد ، فى غفوة ابدية ومازال فى أوتاره ألحان لم يعزفها على قيثارته الصخرية بعد ..

فوق « مدريد » اخفقة
آخر العهد بالسفر
قام « جويا » مودعا
لرفيق له عبر
وبكاه بشعره
طفل « غرناطة » الغجر !

باريس والمدن الجميلة كالنساء

مازالت باريس عقد الرحلة الماسى ، تتوالى بها الايام والليالى فى حرية وانطلاق لا مؤتمرات رسمية ، ولا ندوات ادبية ولا حفلات استقبال وانما طواف بلا قيود وعلى نفقتى الخاصة وكيفما اتفق .

هاهو حى « البيجال » الشهير ، حى الملاهى وتجارة الجنس والمتعة الرخيصة وهاهو مطعم « مكسيم » العالمى و « الطاحونة الحمراء » « لوحة فان جوخ » الشهيرة التى صارت عنوانا للملهى الليلى الباريسي الشهير وصـــالات الرقص والقمار ، وحوانيت الكتب والمجلات العـــارية . والناس فى الشوارع يستعملون شفاههم أكثرممايستعملون اى شيء آخر فى الاكل والثرثرة والقبلات !.

كنيسة « نوتردام » وحديقتها الواسعة ، وكبارى نهر السين الذى يوازى ربع نهر النيل العريق ، نقل الفرنسيون اجمل آثارنا ولم يكن باقيا الا ان ينقلوا نهر النيل !. ذكرت « فيكتور هوجو » الشاعر الكبير ورائعته « أحدب نوتردام » والتى كانت مقررة علينا فى المرحلة الثانوية وكم حلمت ايامها ان أرى تلك الكنيسة التى خلدها هوجو فى رائعته ، جلست فى الحديقة .. وقد تناثرت فيهـــا جوقات الشباب من الجنسين يغنون على آلة غريبة أشبه بالاورج ولها صوت السمسمية ، بعضهم قال شعرا ، والقى خطبة . فتيات ناضرات قرأن أشعار لبودلير وملارميه

امراة عجوز غنت بصوت متحشرج مشروخ ، جمهور كبير ما الحكاية ؟ مجموعة من الهواة الصعاليك يفضلون جوار الكاتدرائية على شاشة التليفزيون والراديو والصحف فيعرضون لوحاتهم ويزعقون بآرائهم ويقرأون انتاجهم ويغنون أغانيهم ولا يعرف بعضهم بعضا .. وانما ربطتهم رابطة الرحلة والاكتشاف . ومهاجمة أعداء السلام والحرية .

السود فقط

مطعم خاص للسود فقط « هكذا كانت اللافتة » للسود فقط في حي « سان جورج » طرقت الباب فتحت لي زنجية حسناء ، دخلت تجمهروا حولي ورفضوا دخولي لانني لست أسود والمكان خاص بالسود فقط وادعيت انني أسود اللون ، أو أسمره على الاقل وعزفت على وتر القارة المشترك « أفريقيا السمراء » وقرأت أشعارا لعنترة وسحيم وجيمس بالدوين وسنجور بلا جدوى ! ورفضوا لان الشرط هو سواد اللون . وكأن السواد جنسية خاصة لا لون .

ما الفرق بين الاسود والاسمر ؟. أليس كلاهما ضد الابيض ؟ رفضوا هذا المنطق ايضا ..!

تعاطفت معي بعض السوداوات وأيدن وجهة نظري ورقت قلوبهن للاشعار ورفضن الرجال السود وأصروا على تنفيذ الشعار . مهما كانت المبررات والاعذار .

وطال بيننا الحوار رفضوا وجه الافريقي . كشفت لهم عن وجه الصحفي بعد أن رفضوا وجه الشاعر أملا في حوار معهم يصلح للنشر ، ورفضوا أيضا .

عدت للشعر مرة أخرى قلت لهم أنني صديق «سنجور» عصفور افريقيا الاسود وجمعنا معا مهرجان الشعر

العالمي فى « اشتروجا » واننى صديق شاعرهم الضال « جان بيريفيير » الذى رافقته سبع ليالى فى مسروج مقدونيا الخضراء وذكرت لهم أبياتا من قصيدته « كى ترسم عصفوراً » ..

رفضوا كل العروض .. فهذه مملكتهم الليلية السوداء ولا يفتحها الا ابناء جلودهم السود ، ولج بنا الحوار حتى كاد الامر ان يتطور الى اشتباك وعراك وتوقفت الموسيقى وتجمع رواد المطعم كأنني جنس ثالث كريه سيلوث المكان المخصص للسود وكأنهم جنس أرى ولم اغضب سعدت بالمحاولة واحترمت اخوة اللون واعتزازهم بالزنوجـــة وغادرت المكان وأنا اقول لنفسى :

« والحق أن السواد أول والبياض طارىء ففى غيبة النور وهو مصنوع لا يكون الا الكلام والظلام ملء الارحام وملء القبور فهو أول وآخر والمتنبى يقول : « انما الجلد ملبس، وابيضاض النفس خير من ابيضاض القباب »وغير بعيد وقف صديقى بقامته العالية شامتا وهو يقول :

ذات مرة سيذبحك أحدهم او تنال علقة ساخنة حتى تكف .

أيام عجفاء من السندوتشات وفطائر الصويا والمشي على الأقدام من متحف رودان الى الانفيلد قصر وزارة الدفاع الفرنسية المبنى عتيق ضخم فسيح وميدان أفسح وطابقان بهما كل النماذج الحربية والمعارك الفرنسية مدافع من طراز عام ١٨٠٠ فرنسية بالرسوم وتماثيل دبابات وهياكل عربات .. تمثال « نابليون » بالحجم الطبيعى يتصدر المبنى حجرات طويلة حوائطها مزينة بلوحات نقش فوقها أسماء ابطال وشهداء فرنسا فى معـــركة

« البريتون » واستشهد فيها وحدها أربعمائة وخمسون الفا من الشهداء »

ومن الانفيلد الى « برج ايفل » مسافة اربعين دقيقة سيرا على الاقدام وقد كلت وتجمدت وكل متنى بدوره وعربدت آلام « النقرس » آلعين متنى ومالت الشمس أو كادت فعاودنى شوقى الى النيل وقد لاح برج ايفل على شاطىء نهر السين وسط حديقة واسعة فيحاء وهبت نسمات رصينة ناعمة كأنها نسمات الصيف القاهرية .. ونشرت الشمس فرعا من جدائل ضوئها الوثير ولاحت سماء باريس الرمادية لاول مرة ناصعة صافية .

البرج من حديد مشغول مفتول كأنه تمثال ضخم الجسم صب فيه صاحبه دماءه وعرقه فجوف من الجهات الاربع فسيح القوائم يستطيل ويعلو حتى ينتهى الى عود نحيل فى النهاية يشب نحو السماء .

حديقة ونافورات واكشاك سياحية ومقاعد وتلفريك ومطعم سياحى فى الطابق الثانى من البرج والوف طوابير السياح ومبنى لادارة البرج وتمثال يتوسط الحديقة ذهبى الشكل باريسى القسمات نقش تحته اسم « جوستاف ايفل ١٨٣٢ — ١٩٢٣ » ..

آن الرحيل . الثامنة صباحا وباريس تغتسل بالمطر عارية من مساحيق الليل بعد شمس يومين رائعين الرذاذ يتساقط بلا انقطاع ، الشوارع لامعة السماء رمادية داكنة الشمس تتوارى وراء السحب . ولذعة البرد الخفيفة تتسلل الى الاطراف من جديد .

سرت مسيرة الطواف الاخيرة بشوارع السربون والحى اللاتينى العتيق . القى نظرة الوداع على باريس وهى تتثاءب تنفض الكرى عن عيونها الساحرة . وفجأة مرقت

عربة زاعقة الابراق فى غسق الليل ومعها حشرجات غناء يقول : « السح الدح امبو » .. و « ياعم يا بتاع الجمال » « وزحمة يادنيا زحمة » وتلفت وأنا أتساءل هل تطورت باريس فى عالم الاغنية حتى تطرب لمثل هذه الاغنيات وتذيعها فى الصباح الباكر أم تطورت أغانينا الهابطة فغزت باريس ؟ ونظرت فاذا بنخبة ساهرة ضاحكة من الشباب المصرى تلهو وتلعب وتطلق رآديو السيارة على آخره .. وتمرق بالعربة فى أزقة باريس الغافية وتطوف في الميدان الكبير فى غفلة من عيون البوليس الفرنسي وكأنهم في بولاق او حى عابدين يتسابقون ويمرقون فى الازقة دون مبالاة !.

القيت نظرة أخيرة علي فندق « فلاندنا » بشارع « جولز » ورأيت لاول مرة تلك اللافتة الرخامية على أبوابه والتى تقول : أن شاعرا ما ليس مشهوراً ولا أذكر اسمه قد مر بهذا الفندق وقضى عدة ليال فيه .. وقلت لنفسي ولصاحبى الحميم :

لك أن تفخر بصديقك الشاعر .. فأسماء الشعراء تسجل على لافتات الفنادق ولا تسجل أسماء الروائيين أمثالك .!

ربما شفعت لك صحبة الشعراء فنقشوا اسمك بجوارى على لوحة رخامية !

وانطلقت وعلى شفتى أصداء قصيدة جديدة لباريس :

ها أنت ياباريس
وها انا طائر رغمي
بعيدا عن صباحك والمساء
ها انت ياباريس والمدن الجميلة كالنساء ...
وكنت لى أحلى النساء .!

كل الطرق تــؤدى الى لندن ..
من روما . فيا قلبى لا تحزن !

كانت هذه هى المـرة الاولى التى أطأ فيهـــا أرض الرومان ولم تكن المرة الاولى التى طار اليها الخيال مـن خلال رحلة السطور والكتب فى حضارة روما .

هبطنا مطار « دافنشي » فى المساء ، ولم أجد أحدا فى الانتظار بالرغم من رسائل « الحقيبة الدبلوماسية » الى الاكاديمية ، وضعت حقائبى جانبا وبحثت عن عمـــلة للتليفون ولم أجد .!

ناشدت الايطاليين الموجودين فى المطار شيئا من هذه العملة وهى نصف ليرة فضية لا تساوى شلنا رفضـوا اعطائي اياها لا أحد يعبأ بك مجرد هزة استخفاف ويسرع الخطى دون رد سؤالك أو نجدتك .!

أخيرا تطوع أحد عمال نظافة المطار ونفحنى بها ، ولم تفلح محاولة التليفون فالاكاديمية مغلقة والمكتب الثقـافى في أجازة ، اخذت أوتوبيس المطار الى ميدان المحطــة ومنها تاكسي الى شارع « أوميرو » بحدائق بورجيزى حيث مبنى بيتنا المصرى هناك وهو الاكاديمية المصرية .

رطن سائق التاكسي لى ورطنت له ولا لغة بيننا واندفع يكتب فاتورة طويلة ويتحدث ويزعق على طريقة الافـلام الايطالية وانا أبادله نفس الزعيق شافعا قولى بالاشـارة راسما له الكلمات دون أن يفهم أحدنا حديث الاخر .

زعقت على صديقى الذى سبقنى فى الرحلة اليها وكان على علم بموعد الطائرة واتفاق على نزولنا معا فى نفس

المكان لم يرد .. قرعنا الاجراس لا أحد . عاودت النداء بالصراخ وسائق التاكسى يصرخ بذوره يريد الحساب والعداد يسجل الدقائق الضائعة .

زعقت بأعلى الصوت انادى ليفتحوا لنا الابواب لاصدى لشيء كان محالاً أن أعود ادراجى بنفس التاكسى الى احد الفنادق فقد انتصف الليل وانهمر المطر ولا احتمال لوجود مكان فى هذا الوقت وكنت واثقا ان زميل السفر نائم فى الاكاديمية ولابد أن يستجيب للنداء عبثا أغمض عينيه واذنيه وتنكر كالجبناء .!

واخيرا اقبل بعض الشباب مهرولين ، وسائق التاكسى يرطن ويبرطم والفاتورة تتضاعف على حساب العداد .

فاليوم عطلة وللوقوف الطويل ثمن وللحقائب ثمن وللضرائب فوائد فوق ذلك علاوة على الاكرامية ، ودفعت مرغما ودخلت من باب الاكاديمية لاشم ريح مصر فى تمثال « الحمامة » التى يتوسط حديقتها الخضراء الذى صنعه الفنان المصرى « آدم حنين » حيث وقفت الحمامة الصخرية وحيدة بلا أليف على غصنها الحجرى وعشها الصخرى تغنى وتهدل فى صمت أعجمى وكأنها تستقبل هذا الوافد الغريب مثلها .

وذكرت قول الاعرابى المجهول شاعر تلك الابيات الرقيقة :

الا قاتل الله الحمامة غدوة
على الغصن واذا هيجت حين غنت
تغنت بصوت أعجمى فهيجت
هواى الذى كانت ضلوعى اكنت
فما سكنت حتى آويت لصوتها
وقلت أرى تلك الحمامة جنت

ولم تجن الحمامة فهى حجرية صماء ـ وليست قمرية غناء ، ولكن كدت أجن من نكران الصديق الذى آوى الى غرفته قريرا راضيا وصم أذنيه عن النداء .

تنفست الصعداء وعانقت وجه مصر فى شبابها المغترب وحملوا حقائبى وافردوا لى غرفة فى الطابق الثانى ولا يوجد مسئول واحد يعلم بأمر المبيت المفاجىء فى الاكاديمية . فقد خف الجميع الى مهرجان « فينسيا » السينمائى ـ يستجمون ويحكمون ويتسوقون ولولا أن سمع صراخنا المصرى هؤلاء الطلاب المصريون ففتحوا لنا الابواب لهمت على وجهى فى ليل روما الرهيب .

تعرفنا سريعا ، واقترحت أن نخرج فى جولة سريعة عابرة لنعانق روما فى منتصف الليل نذود عنا البرد والمطر بدفء الطعام والشراب .

واخترقنا حدائق بوجيزى الشاسعة على الاقدام ، وعبرنا بوابة « السان دى بوبولو « المسلة » ودلفنا الى الشارع الكبير متجهين الى أحد المطاعم الساهرة .

مرت الليلة الاولى ، ومرت بعدها ليال عشر فى روما من التجوال والطواف وأنا نزيل الاكاديمية فى غرفة واسعة من طابقين تطل على الحديقة الفيحاء وكأننى أملك حق الاقامة على أرض مصرية وأن كانت غريبة الديار .

عمر الاكاديمية خمسون عاما منذ قرر ملك ايطاليا أن يمنح قطعة مجانية لمن يريد أن يبنى أكاديمية وقد كان وارتفعت اكاديمية مصر وسط اكاديمية روما والاكاديمية البلجيكية واكاديمية فرنسا .

وكان أول مدير لها الفنان التشكيلى « سحاب »

فى الصباح التالى التقيت بزميلى المصرى الذى صم أذنيه عن نداءات ليلة الوصول بالرغم من اتفاقنا المسبق

فى القاهرة والمشفوع بليلة ساهرة تبادلنا فيها انخاب الشعر والقصة والادب الشعبى .

التقيت به يتبختر فى ممرات الحديقة ـ ومعه ولده ـ قصيرا سميكا عليه قطيفة من نسيج أضراسه كما يقول الجاحظ ، خفيض الصوت مراوغ النبرة والنظرة وكأنه فوجىء بى سائلا :

ـ اين كنت بالامس وقد ملأت شارع « عمر الخيام » حيث تقع الاكاديمية صراخا وزعيقا حتى خف لى النيام من طلبة البدروم ، أو لم تسمع وهل نسيت موعدنا فى القاهرة ؟

وتلعثم وهو يقول : أونت صاحب الزعيق الليلى ؟ لقد ظننتك ايطاليا فى مشاجرة ليلية على عادة أهل روما وانا كما تعرف أتجنب مثل هذه الخناقات وقلت له : وهل أهل روما يتشاجرون باللغة العربية وينادون على الاسماء المصرية فى آخر الليل ؟

التف حول نفسه كالدودة فى أغشية الأمعاء وهو يسوق المعاذير الزئبقية ويسترسل فى التبرير : وايقنت أن الغربة تفرز الاصدقاء وتكشف عن معدن أصالة الرجال وان ابناء الوطن الواحد قد يلتقون معا على أرض بلادهم ولكنهم يلبسون الاقنعة بعيدا عنها ..

وما لبث صديقى المراوغ أن اختفى فى دروب روما دون رجعة .



وجوه مصرية وعربية ، تحتشد فى مهرجانات روما الخريفية فى شهر أكتوبر المجيد .

«ندوة البحر الابيض» « مهرجان فينيسيا السينمائى » ،

معرض الفنون التشكيلية العالمي ، أوبرات فردي العالمية ، والحجز قبلها بشهور .

د . مصطفى بدوى الاستاذ بجامعة اكسفورد .. والمعيد القديم بجامعة الاسكندرية وصديق تلك الايام وانا طالب بها .. وكلانا شاعر على الطريق بعد .

د . لويس عوض واميل حبيبي الكاتب الفلسطيني الجهير والشاعرة سلمى الخضراء وأدونيس الشاعر شاحب الوجه تائه النظرات والمستشرقة الرقيقة الحالمة « هيلاى كلباترك » والمستشرق الامريكي الشاب « جوزيف بيل » شبيه يوسف السباعي قامة وشكلا .

كلهم احتشدوا .. في تلك الندوة برئاسة الدكتور « هانتر » ، عميد الجامعة الامريكية في مصر سابقا ومعهم وفد يهودي برئاسة دكتور موريه عميد الدراسات العربية بجامعة اسرائيل .. الذى كان يلهث بين الجميع ليجرى معهم الاحاديث الصحفية ويغريهم بترجمة اعمالهم

وانزويت بعيداً . واشتريت طعاماً وفاكهة وزاداً يكفيني في غرفتي بالاكاديمية ويقيني شر غلاء المطاعم الرومانية ووضعت برنامجا لمشاهدة روما ، وضواحيها ودروبها القديمة والفاتيكان العظيمة .

استخدمت ترام رقم « ٣٠ » مثل ترام شبرا القديم والاتوبيس مابين « فيلمنيو » الى « ميدان كولونو » حيث رئاسة الجمهورية ثم اتوبيس « ٤٩ » الى المحطة « ستاسيا » وغيره لميدان فينسيا نهاية الخط او استعمال في الاحوال النادرة الى فيلامنيو القديمة ووجبة عشاء دافئة بعد الوقوف في طابور طويل امام مطعم « الفم الصغير » السياحي الشهير حيث اكوام من طرح البحر وقواقعه واعشابه وفواكهه وأسماكه وحيتانه وام الخلول

والارز بالكارى والجمبرى والكابوريا والاسباكتى بقطع اللحم الشهية وسلطات الكرفس وزيوت خيرات البحر ودهونه ومشتقات الاخطبوط وسلال العنب الرائع والتفاح والموز وشجرة الاناناس الخضراء وقوارير الانبذة المراقة بلا حساب ومختلف انواع الجبن والزيتون والمشهيات ساعات من تناول الطعام والشراب والغناء والرقص فى ضوء الشموع وقد عبق المطعم الصغير بروائح الطعام والدخان التى تكاثفت عبر سقفه الخشبى التى تدلت منه ديكورات السفن وشعارات القراصنة والزجاجات المعلقة والرايات السوداء والقناديل الراعشة الضوء ولوحات فى كل ركن وجدار وحركة سريعة متدفقة بين « المطبخ » الذى يديره مصريون وبين « الطلاينة » الذين يمرقون فى الزحام حاملين اطباق الطعام فى خفة وحيوية وابتسامة ترحيب وكان شعب روما كله ينفق ثلث عمره على موائد وحيوية الطعام والضحك الجميل .

كان ذلك اقصى ما انعم به على نفسى بعد أيام التقشف والاعتكاف الطويل فى غرفتى مسترخيا متأملا اسرح البصر فى حديقة الاكاديمية الفناء واعود الى التأمل الطويل والاسترخاء بعد طول عناء فى متاهات العمل الصحفى وصراعات نيل الجائزة ودوار العاصمة اليومى .

« جولات وجولات عشوائية مشيا على الاقدام حتى اضل الطريق فلا اعدم مقعدا فى حديقة اجلس عليه خالصا فعلى استرق النظر الى العشاق الغافين فى دفء الاحضان تحت رذاذ المطر واواصل السير بين أسواق روما القديمة وكنائسها وميادينها والتسكع طويلا حول اشهر النافورات « بيازا نافورنا » حيث الكنيسة العتيقة وتمثال «بورنيتى» المشهور الذى صمم معظم نافورات روما

واشترك فى بناء الفاتيكان . والذى يمثل عدة أجساد قوية تخترقها نخلة باسقة تتجمع حولها وتصبح رمزا لتجمع العالم هنا ..

وفوق التمثال مسلة رومانية وليست مصرية يعلوها الصليب وهو تقليعة أمر بها البابا فوق كل مسلة وفى هذا الميدان الكبير يجتمع السواح واهل الفن فى عروض موسيقية ومسرحية فى العراء وخاصة فن البانتونيم ..

ويموج الميدان بالرقص والموسيقى ويندفع الشباب يدفعون عرباتهم المجهزة تقدم الطعام والشراب وتتحول الى مسرح لفرقة الموسيقى .

وغير بعيد يرتفع مبنى « البانتوم » الكبير ذو القبة العتيقة مجتمع الديانات فى روما القديمة ومجلس الشيوخ القديم ..

وينهمر المطر ويخف الناس الى المطاعم والمقاهى .. وتناول الطرطوفة ! فى عز البرد ، وهو طبق جيلاتى شيكولاته فاخر بالكريمة لا استطيع التهامه كاملا وانا ارتعد من البرد واستحم بماء المطر وتتابع الجولات الى « تراى ستفرى » والضفة الاخرى من نهر « التنر » الذى يجىء ذكره كثيرا فى جداول الكلمات المتقاطعة !

والذى لايزيد عن « ربع النيل » تقريبا ولكن الحفاوة به تصل الى حد المبالغة حيث تمتد الكبارى والقناطر وقد رصف الشاطىء بالخضرة والورود ومخادع العشاق وقد انسابت الزوارق والمراكب الشراعية والمطاعم الصغيرة الانيقة ثم ميدان « سانت مارية » كعبة الزائرين والساهرين والنشالين والقوادين وصعاليك آخر الليل من لاعبى الثلاث ورقات والفتوات وبائعى كل أصناف

المخدرات علنـــا من أنواع الحقن والمورفين والهـوريين والاقراص والقنب والافيون .

وقد انتشرت طوابير البغايا من كل لون وقد غسـل المطر شعورهن وأذاب المساحيق وقد لعب بهن الشراب ودب فى عيونهن الخدر وشبق النداء !

ودقت أجراس الكاتدرائية العتيقة الساعة الثانية عشر الا ربعا ايذانا باغلاق أبواب المتحف الذى تنتهى زيارته فى الثانية الا عشر دقائق ..

وخرجت ودوار القرون الاولى يتلعب برأسى ، وغادرت الربوة العالية تحت أسوار الفاتيكان التى احتشدت على امتدادها عربات العاديات التذكارية والشطائر والقهوة والباعة الجوالون لاسترخى فى الحديقة الواسعة التى تمتد من واجهة المبنى حتى شارع الترام .. وتنتشر خلالها الاشجار المخروطية الباسقة وتتشعب طرقاتها عبر صفوف من أشجار الكافور والجازورين والصنوبر وقد لاحت من بعيد « قبة الفاتيكان » وكأنها حصن خرافى الظلال يطير به جنى مسحور عبر القرون والعصور ..



آن لى الرحيل . لم تعد روما تحتملنى ولم أعد أحتمل بردها والضياع ولا طرقات الريح العاوية طوال الليل على باب غرفتى ولا وحدة المقام وغربة الصحو والمنـام وقد لاحت لى الاكاديمية المصرية وقد خلت من الزائرين سوى جدرانا صماء تحتوينى فى ظلام الليل وحيداً فى طـابق وحيد ..

ولاحت لى روما كالغانية اللعوب تلهو بالقلوب والالباب وآن لى الفكاك من براثنها الفاتكة الاظافر والانياب .

وأخيرا « سينما الجنبس » المجاورة فى ميدان المحطة

ومقاهى الشارع العتيق وملاهيه المتوارية وعصابات الليل التى تحتال عليك وتسلبك ارادتك لتدخل علب الليل ومواخير المتعة الرخيصة . بالاكراه .

ومقهى « دوميه » أشهر واغلى مقاهى روما . وملتقى العرب والاثرياء . « ميدان أوجست » والدرجات العتيقة الصاعدة الى أعلى الحى واسمه الجبل وترتفع فيه مسلة مصرية بين أربع عشرة مسلة تناثرت حولها عربات الحنطور والمشارب والمطاعم كنيسة « سانت مارية » ذات الابواب الثلاثة كل باب يفتح عند مرور ٣٣ سنة « عمر المسيح » ويستمر العمل به .

تحت قبة الفاتيكان

زرت الفاتيكان ، وقلت لنفسى : مكابدة يومين متتاليين .. أم مائتين وسبعين عاما استغرقت بناء الفاتيكان مدينة مستقلة فى أقصى العاصمة بناها أمهر المهندسين وكبار الفنانين كان ذلك يوم الاثنين وفاتنى الدخول المجانى حيث يباح الدخول لزيارتها الاحد الاخير من كل شهر . السلالم الدائرية الحلزونية التى تصيبك بالدوار وانت تصعدها الى المتحف ، خريطة ملونة بالحروف الابجدية، لوحات جاليرى ، وتمثال البابا ، وقاعة اللوحات الكنسية والقديسين ، ولوحة كبيرة من خمسة أجزاء « جلفانو نيوقولا » كل قاعة تؤدى الى الاخرى ولوحات من النسيج تغطى الحائط والمقاعد البابوية والسقوف العالية المزركشة بالذهب والياقوت المحروقى ، سقف الصالة الكبرى من الزجاج المزخرف النادر تكاد تشعله أشعة الشمس .

اجمل اللوحات « روفاييل » من ثلاث قطع وصالات

متفرعة لدافنشي وجلفاتيا بيلثو ولوحة فرانسيسكو والراهبة المتوسلة والدماء والدموع .

واخرى طبيعية صامتة رسمها « بلفيدركه » ولوحة سيرتوماس « لجاليري » وتمثال الرحمة لانجلو .. الذى رسم سقف الكنيسة نائما على ظهره طوال خمسة أعوام .

قاعة كبرى للتماثيل القديمة المهشمة الاعضاء وتعود اغلبها للعصر الرومانى القديم ..

مجموعة تماثيل « سوفكل » و « أيكر بون » واجملها تمثال « هوميروس » ذو الوجه المشطور من الرخام المصقول ..

وتستمر الجولة — فى أنحاء الفاتيكان على مدى يومين بلا ملل ، قاعة التماثيل الرخامية ، اعمدة من الرخام النادر ، بقايا رءوس رجال التاريخ القدامى والفلاسفة .

واخيرا المطعم الانيق فى سطح الدار جنونى الاسعار ومكتب بريد وتليفون دولى وبنك فورى ومكتبة ثم الحديقة الشاسعة والنافورة العريقة ، وتماثيل الرومان تتناثر عبر اسوارها وتحت كل تمثال لوحة رخامية . وشرفات واسعة بكل شرفة شجرة تشق عروق الرخام « وبار » رائع ملحق بالمطعم فى قلب الكنيسة المقدسة ومن بعيد تبدو القبة الفاتيكانية الشهيرة .. والنوافذ الزجاجية الصامتة حيث مملكة البابا المقدسة .

غريب فى حى سوهو !

أدرت رقم التليفون وجاءنى صوته من بعيد . من أعماق احدى الضواحى فى لندن وهو يزعق زعقتـــه الريفية غير مصدق :

أين أنت ؟

- هنا فى روما . وقادم غدا الى عاصمة الانجليز .

وأقسم « فارق منيب » بالطلاق ثلاثا أن اكون ضيفه وانزل عليه ثم نتدبر فيما بعد امر الاقامة وعلى ان اركب أتوبيس المطار الى وسط المدينة وانزل فى محطـــة « هارو » ومنها استقل تاكسيا الى شارع « هارولاى » حيث يقيم .

وودعت روما غير آسف !. بردها القارص والشـــتاء ولصوصها الظرفاء والضجيج والعبث والغلاء ، والوجوه المصرية من نزلاء الاكاديمية الغرباء وسوقية اجـــراءات مطار « دافنشى » العالمى واللهاث بين مكاتبه العـــديدة حيث جلست عاملات الطيران الايطالى تلاقفك واحـــدة الى اخرى وهن يرطن ويطرقعن الكلمات مع طرقعـــات اللادن وقد أوشكت الطائرة على الاقلاع لولا تدخل رجل أمن أمين أجبر واحدة من العاملات على انهاء اجراءات التذكرة وشحن الحقيبة ولحقت بالطائرة فى اللحظـــات الاخيرة .

وطرت الى لندن ، وفى دقائق انتهت اجراءات المطار الكبير « أوثرون » فى آدب جم وابتسامة ترحيب .

ونفذت كل ما أمرنى به فاروق حتى لايقع فى اثم يمين الطلاق .

انتظرت قليلا وقد لفحني برد لندن الانجليزى حتى وصل الاتوبيس بعد أن غيرت بعض العملات وحملنى الى وسط المدينة ومنها الى العنوان وقد زحف الليل وغفت غصون الشجر التى تظلل الشارع وحدائق البيـــوت وناديت بأعلى الصوت وقد وقف التاكسى أمام رقم ٢٨ :

فاروق . فاروق كما كنا نناديه أمام بيته فى حلوان آخر الليل وجاءنى صوته من داخل البيت : أدخل ..

وأسرع ولده « خالد » يحمل حقيبتى وقد خفت زوجته الى تستقبلنى بابتسامة راضية .

وكان لقاء !

وجدته كالعهد به ــ بقامته الفارعة ووجهــه الريفى وبسمته العارية وضحكته العالية ممددا فى سرير أبيض فى غرفة الكلى وقد تشابكت وتداخلت حول جسده وفى عروقه مجموعة من الابر والاسلاك والانابيب وقنانى الدم وبالونات الهواء وقد استلقى فى هدوء تاركا ذراعيــه وقدميه وسائر جسده لهذه التوصيلات المعقــدة وهب يريد الوقوف لمعانقتى كأنه أسد مكبل بسلاسل الحديد يحاول ان يجرها وراءه ليثبت أنه مازال ملك الغابة .

فزعت من المنظر .. واشرت اليه أن يبقى كمـــا هو ..

وجلست غير بعيد منه وهو يطلق التحيات والسلامات والضحكات من سريره الابيض وانا أحدثه وأراقبه ونحكى عن اخبار القاهرة حتي أنهى عملية « غسيل الـكلى » الاسبوعى وبدأ ينزع كل ماغرسه فى جسده من أشياء فى صبر وثقة وقام بقياس الحرارة والنبض والوزن

والضغط وسجل كل ذلك في لوحة معلقة على سريره ثم قراها على طبيبه المعالج بالتليفون وابلغه بنشرته الصحية وكأنه طبيب آخر ومريض في نفس الوقت .

وانتفض فاروق واقفا بعد أن فك قيود اسره فارع القامة متهلل القسمات وعلى ذراعيه بصمات قطرات الدم لم تجف بعد .. لنتعانق طويلا وهو يقهقهه ويتمتم بالتعليقات وينبش ذكريات الشباب القديم .

وقد وقفت زوجته الصامدة في صمت وجلد ترقب المنظر وتجمع النفايات التي ملأت ارض الحجرة من لفافات القطن الملوثة بالدم وفوارغ الابر وقوارير الادوية وبالونات الاكسيجين وعلب الدم وتنظيف جهاز الكلى الرهيب وتغسله وهو شبه غرفة صغيرة ملحقة بحديقة المنزل الخلفية يعيش من خلالها فاروق ويتنفس الحياة طوال اثنى عشر عاما ويتكفل بتكاليفها الباهظة مصر وبعض أجاويد العرب .. ويا ويله حين تتوقف هذه الاعانات فتتوقف معها حياته أو تكاد .

وتألق فاروق .. كان مزودا بطاقة علاجية جديدة وجبة من الصحة والعافية تدفقت في وجنتيه واشراقة وجهه وطلاقة لسانه .. وجبة يلتهمها مرتين كل اسبوع يعدها بنفسه بعد أن دربه الاطباء على طريقة اعدادها .

وتناولنا عشاء من الفول المدمس والجبن ... وكأننا نتسكع في حي الحسين ساهرين حتى الصباح نحكي ونطرب ونشرب ونضحك ونثرثر وقد افترشنا الارض بجوار المدفأة وكأنه الوداع الأخير .

فبعدها .. رحل فاروق منيب صديق القرية ورفيق المدينة باشهر معدودات !



من يومها بقيت رحلة لندن معلقة خلف اذنى مدفونة فى أوراقى اهرب من أصدائها العادية وأشباحها الضارية واتكاسل عن تسجيلها بعد أن كدت أفرغ من السرد والتسجيل .

كنت أدخر حروف الرحلة فى صندوق الصمت طويلا حتى تعتق وتدب فيها الحياة فتخرج حية على الورق . اثقب لها يراع الناى فتتلوى راقصة زاحفة من جحرها الدفين لتريق دمها فوق الورقات وقد فات عليها حين من الدهر يطول أو يقصر ولكن لا يفلت حبلها من يدى او تطمس معالمها فى زحام السفر .

وظلت أيام لندن راكدة فى الاعماق وقد توالت عليها رحلات ورحلات فقدت اسبقيتها فى التدوين وتوارت وراء تتابع الاعوام وكادت تخبو جذوة الكلمات .

عشرون يوما فى صقيع شتائها ووحدة الطواف بارجائها يلفنى ضباب الرؤى وافتقاد الانس والرفيق .

فقد تركت فاروق فى عالمه الليلى بعد القائنــا الاول ثم جولة نهارية حيث حجز لى شقة من أحــد الاصدقاء المصريين رخيصة الثمن فى وسط المدينة وما أن وضعت حقائبى فيها فرحا بسعرها ونظافتها حتى بادرنى صاحبها بعدة نصائح جادة جعلتنى احمل حقائبى مرة أخرى بحثا عن احد الفنادق .

كان على أن أغلق بابها بالمتاريس ولا افتح لاحد وان أسدل الستائر على النافذة حتى أحجب النور عن العيون وأن احاذر فى الدخول والخروج واستعمال المصعد حتى آمن سطو اللصوص الذى يتوارون فى ظلمة مداخــل البيوت آخر الليل او يطرقون أبواب الشقق بشــتى الحيل والاساليب وروى لى ما افزعنى من الحكايات .

واعتذرت للصديق الصعيدى صاحب الشقة وبررت له ايثارى للاقامة فى أحد الفنادق رغم غلائهـا لأسباب صحية .

وصاحبنى الى شارع « كونيس واى » بعد جولة تحت المطر بحثا عن غرفة خالية دون جدوى وحجز لى غرفة بسلطاته كصاحب فندق زميل سعدت بها بالرغم من ارتفاع سعرها فالفندق فى وسط الشارع ومجاور لعدة مبانى حكومية عليها حراسة ليلية وأمام الفنـدق محطة اتوبيس .

وتجمدت فى الفراش ثلاثة أيام حتى دفعنى الجوع الى الخروج طلبا لشراء الطعام فلا يوجد وجبات فى الفندق ويوجد مطبخ ملحق بالغرفة وبعدها تفقدت المكان وعثرت على فندق أرخص سعرا « بالاس كورت » وتوالت الايام فى جولات عابرة على ضفاف التيمز والأحياء القديمـة القريبة منه وأعماق لندن التى صورها « ديكنز » وعلقنا بها خلال الدراسة ودير كنيسة وستمنستر وليفربول ومعالم لندن العريقة ولانكستر واكسفورد والبيكاديللى وماريل آرس ودوفلد وقصر باكنجهام والهايدبارك ودقات بيج بن وبرج لندن وتمثال تشرشل ودار البرلمان وساحة الطرف الاغر وشارع الكنيسة ومحطة فيكتوريا ومحلات لندن ذات الطوابق وأسواقها الكبرى فى أكسفورد وريجنت استريت وبيكاديللى وفنادق ومطاعم الايرلس كـــورت الساهرة ووجوه العرب المنتشرة وسنجن الهنود والزنوج المقتحمة ونساء الطرقات .

ورحلات طواف بالريف الانجليزى وزيارة قلعة وندسور العتيقة وقلعة هنرى الرابع وكنيسة وندسور ولوحـــة العشاء الاخيرة المهداة من جورج الثـالث وطريق آرثر

وملاعب الجولف الشاسعة وقنطرة الملك والمطاعم الدافئة والطرق الملتوية والهدوء الشامل ..

وانتقلت الى فندق ثالث « بارك رويال » على طريق كينز نجتون لانه اكثر رخصا اغرانى به فتيات عربيات يدرسن فى السوربون ومالبثت أن اكتشفت أن صاحبها اليوغسلافى الاصل وزوجته يسرقان النزلاء مقابل هذا الرخص ووجبة الافطار الدسمة ويعطلان المدفأة الا اذا دفعت كل عدة ساعات نصف جنيه استرلينى فى حصالة مثبتة فى المدفاة مثل التليفون .

وتمر الايام باردة وحيدة فقد سافر اغلب الاصدقاء ولم يعد الا اكتشاف مايمكن من لندن بالجهود الذاتية ومن خلال دورة الاتوبيس حولها والسعى فى دروبها وركوب القطار الارضى والتوهان أكثر من مرة فى محطاته المتشابكة . ورحلة شبه يومية لمبنى الاذاعة « البوش هاوس » والتمتع بناديه ومطعمه ولقاء بعض الاصدقاء . وتطول ليالى الغربة والضياع والتسكع فى حى سوهو الساهر حتى الصباح اقفو خطى « ولسن » واحس بالفة المكان الذى قراته فى مؤلفه الشهير . حيث كانت تحلو جولات آخر الليل فى ازقته وشوارعيه وملاهيه المنتشرة واكلاته العربية ومشاغبات الصعاليك من الشباب الانجليزى أصحاب الرءوس الصلعاء وأصحاب حد الموس يهددون به العابرين ويخطفون القبلات من العابرات ويتابطون اذرعهن قسرا من اذرعة الفتيان ! ومحلات الجنس وعروضه التجارية الهابطة وحلقات الديسكو وعربدات السكارى ومطاردات الزنوج ولهجات «الكوكنى» المميزة التى لا تفهم منها شيئا كلما سألت عن شيء !

الشعراء .. أصدقاء الشمس القدامى

● « انا مثل الناس الذين قدموا الى ارض انا من جنس عربي ·
جنس كان صديقا للشمس
انا من اولئك الذين كسبوا كل شيء ·
ففقدوا كل شيء ·
وروحي هي روح الزنابق العربية » ●
((مانويل تشادو))

الاندلس .. الاسم الذي أطلقه العرب على الجزء الجنوبي من أسبانيا .. غزاه طارق بن زياد عام ٧١٢ بجيش قوامه اثنا عشر مقاتلا فاستولى على جبل الفتح ..

ثم هزم ملك القوط لزريق وتوالت الفتوحات بقيادة موسى بن نصير حتى وصلت جنوب فرنسا .

وبسقوط الدولة الاموية استقل عبد الرحمن بن معاوية وخلفه هشام ثم ابنه الحكم ثم عبد الرحمن الثاني ثم عبد الرحمن الثالث « الناصر » فالحكم الثاني وتوالى الخلفاء حتى سقطت في يد ملوك الطوائف .

ومن أشهر مدن الاندلس قرطبة واشبيلية وبلنسية وغرناطة وطليطلة ومن اشهر خلفائها عبد الرحمن الناصر وكانت أسبانيا تحت حكم الرومان .. الى أن أغارت عليها قبائل « الوندال » في القرن الخامس الميلادي فأطلقوا عليها أسم : فاندلسيا أي بلاد الوندال ..

وجاء العرب فسموها الاندلس ..

وجاء الشعراء الأسبان فنهلوا من مناهل فنونها وقالوا قولتهم الشهيرة :

اذا ذكرت الاندلس فقد ذكر الشعر والغناء

وهانحن فى رحاب الشعر والغناء وقد اختفت الشمس وراء السحب وانهمر المطر واغتسلت الشوارع والاشجار وفروع الخضرة والازهار التى تتسلق جدران البنايات والنوافذ والحانات والحوانيت وجدران الازقة العتيقة والحارات .

الالوان الخضراء تطل من نوافذ البيوت وتملأ مداخلها وساحاتها تتسلق حافة النافورات التى تطالعك فى كل دار .. وتعانق عينيك اينما صعدت البصر ..

دقات « الفلامنكو » الشهيرة تنبعث صاخبة عالية من وراء الكهوف .. تنشد فى صوت جماعى وخيم احدى اغنيات « لوركا » صاحب الديوان الغجرى الذى صور حياة هذه الفئة الراقصة التى برعت فى الغناء والرقص وفن التنجيم واشتهروا بالسرقة والغيرة وخطف الاطفال وهاموا مشردين من موطنهم الاصلى شمال الهند .. ثم انتشروا غربا فى الشرق الادنى وعبروا البوسفور واستوطنوا البلقان ثم واصلوا رحلة اغترابهم وتشردهم تحت الحكم التركى الى المجر وبولندا ووسط أوربا .. ويتميزون بسواد البشرة والشعر ويسمون « جيسى » نسبة الى مصر فى بعض الاقوال .

ووقع لوركا فى هوى غجرية سوداء الشعر حزينة العيون . وكتب عنها أشهر قصائده شعبية وهى « أغنية الالم الاسود » يصور فيها مأساة هذه المرأة « سوليداد » وآلامها التى هى ألم الجنس الغجرى لا آلامها وحدها :

« لابسة الثياب السود
تظن أن العالم شىء بالغ الصغر
وأن القلب هائل العظمة

لابسة الثياب السود
تظن أن الزفرة الرقيقة
والصرخة العميقة
يذهب بها تيار الريح
لابسة الثياب السود ..
لقد تركت الشرفة مفتوحة
فتسلل منها الفجر
آه .. آه .. لابسة الثياب السود
ويقول محاورا الغجرية الحزينة :
« ياسوليداد مونتويا .. »
ماء النهر فى سفح الجبل
مترنم الخرير تنعكس عليه صورة السماء .
ما أنت الا جواد جموح مازال يجرى حتى انتهى الى البحر »

هكذا عزف الشعراء الاسبان على أوتار عربية .. حين رسب فى أعماقهم ذلك التراث العريق من فنون الموسيقى والشعر والغناء فتميزت أشعارهم بمذاق عربى وجرت فى عروق قصائدهم دماء عربية أندلسية الايقاعات .

ولقد اعترفوا بذلك .. وتغنوا ببلادهم العربية الجميلة .. فهذا أونامونو أكبر شعراء « قشتالة » أجمل بقاع الريف فى الاندلس .. يعترف بقوله :
« يا أرض قشتالة
أيتها المعبد الهائل
الى هوائك سأرفع أغنياتى
فاذا كانت جديرة بك فلتنزل الى هذا العالم من ذروة عليائك » ..

وشاعر آخر ينفرد بين شعراء الأندلس بوقفته الطويلة

على الاطلال وبحنية الى أجداده أصدقاء الشمس ..
مراثيه لمدينة الزهراء بلغت ديوانا كاملا .. ويصف
فسه فى احدى قصائده بأنه شاعر عربى فيقول شاعر
نرطبة .

« ريكاردو مولينا » :

« الرجال الذين يتغنون بالياسمين والقمر أورثونى
وهواهم وأوارهم ونارهم .
الغرام المضنى للشفاه المتأججة والعبودية للجمال
الذائب الرقة ... »

وتتابع الشعرأء جميعا يتغنون بمجد الأندلس القديم وبطبيعتهم العربية الساحرة امثال : أوناموتو — ومولينا — والشاعرة خوانا كاسترو والشاعر كويباس نابورو — الذين كتبوا ديوانا كاملا بعنوان « مراثى مدينة الزهراء » احدى تحف العرب فى قرطبة .. وأصدرته مديرية ثقافتها .. وتحس فيه بأنفاس الشعر العربى .. وروح الزنابق العربية خاصة وان هؤلاء الشعراء قرأوا الشعر العربى وبخاصة الشعر الاندلسى مترجما الى لغتهم الاسبانية فتسللت اليهم تلك الموسيقى الخفية التى يتميز بها شعرنا العربى ..

هكذا تغنى شعرآء اسبانيا بأندلسنا الغابرة .. غرناطة وقرطبة وقشتالة واشبيلية .. موطن الشاعر الكبير « مانويل ماتشادو » الذى : تغنى بأجداده العرب واعترف بأنه من جنس عربى قائلا :

« أنا مثل الناس الذين سكنوا أرضى
« أنا من جنس عربى
جنس كان صديقا قديما للشمس
انا من أولئك الذين كسبوا كل شىء

وفقدوا كل شيء ..

وروحي هي روح الزنابق العربية الاسبانية »

وفي اشبيلية هذه آخر قلاع الاندلس وموطن شاعرنا الاندلسي كانت نهاية العرض الملك شاعر عربي هو المعتمد ابن عباد . الذي أضاع التاج والملك وبكاه حيث لا ينفع البكاء ..

كان « المعتمد بن عباد » أندى ملوك الاندلس راحة وأرحبهم ساحة وذلك كان قصره ملتقى للفن والشعر وموسما للشعراء .. واجتمع ببابه من الشعراء والادباء مالم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره . وكان من ندمائه ورواده ابن زيدون وابن عمار وابن حمدين الصقلي وفي بلاطه عاش الطبيب العربي ابن زهر .

وكان شاعرا رقيقا مترفا لاهيا هام حبا « بالرميكية » الحسناء التي سماها « أعتماد » وكانت شاعرة ساحرة ومن رقيق شعره :

اني رايتك في المنام ضجيعتي
وكأن ساعدك الوثير وسادي
وكأنما عانقتني وشكوت ما
اشكوه من وجدي وطول سهادي .
وكانني قبلت ثغرك والطلى
والوجنتين ونلت منك مرادي

كان الشاعر الملك .. بين جواريه وحواريه في غلالة من حرير يتقي بها وقد الصيف .. وهو على شاطيء بركة من مسك وكافور تسبح فيها الجواري وتعرى السيقان والاحاديث ..

والتبه الشاعر .. فاذا بجنود أبن « تاشفين » تسوقه في غلالته الحريرية .. وتسوق معه عشيرته وأهله الى

السجن .. فذاق الويل هو وبناته وينظر وقد جاء العيد فاذا به مكبل في الحديد وبناته يرفلن في القيود بدلا من ان يرفلن في ثياب العيد فينشد باكيا :

ترى بناتك في الاطمار جائعة
يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة
ابصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والاقدام حافية
كأنها لم تطأ مسكا وكافورا .!



هكذا غنى الشاعر الاسباني الذي تجري في عروقه ايقاعات عربية واندلسية وقد بهره ذلك التراث العربي فنهل من مناهله ووقف على اطلاله وحن الى رسومه الدارسة .

وهكذا بكى شاعر عربي .. كان ملك اجمل المدن الاندلسية واكبرها ــ فهوى عن العرش ونجم الاندلس يأفل على يديه الى الابد ..

ساعات تحت المطر فى سبيل جويا وبيكاســو

المدينة مازالت غافية بعــد .. والشوارع خاليــة مقفرة فى صباح عطلة الاحد ..

والمطر يقظ لم ينم .. ينهمــر بغزارة وينشر فى السماء لونا رماديا تركض فيه السحب وتحجب وجه الشمس .

والطابور طويل تحت المطر .. يمتد من تمثال «جويا» فى نهاية حديقة المتحف الكبير حتى باب الدخول .

وأخذنا دورنا فى الطابور الطويل الممطر ولفحة البرد الصباحية لندخل « برادو » مدريد القومى ومتحف جويا الذى يضم لوحاته ولوحات غيره من رواد الفن الاسبانى .

المتحف رهيب كبير عدة طوابق وقاعات .. تشبه قاعات اللوفر وردهات الفاتيكان ..

اللوحات تغطى الجدران وتصور تطور الفن الاسبانى عبر القرون ..

فى مدخل المتحف وفى طوابقه مكتبات تبيع كتبـــا ولوحات وكروتا سياحية متعددة الطباعات والاحجـــام والاسعار لتكون فى متناول كل زائر ..

لوحات « جويا » تصدر المكان : الرقص .. والقتال واسرة كارلوس والعارية ولوحة المقاومة الفرنسية ولوحة الجنرال ريكادو .. وسائر اللوحات التى تصور مرحلة تفتحه واشراقه ..

وفى جناح آخر لوحات جويا السوداء الدامية التى تصور مرحلة عذابه وسقوطه وهى الفترة التى سماها النقاد « الفترة السوداء » .

واللوحات تشى بالقسوة والمرارة والسواد والدم .. الوجوه المطحونة والايدى المعروقة والاقدام الناحلة والعيون الجائعة والافواه التى تقطر منها الدماء وتعلو بالصراخ والنحيب .. كأن اللوحات حملت من جويا عدوى جرثومة المرض الذى نزل به فى هذه الفترة السوداء ..

فى القاعات الاخرى والردهات الطويلة تنتشر اللوحات بأحجام كبيرة من الرسم والنسيج والتصوير .

لوحات فيلاسفى ومورلو وجيركووباقى رفاق جويا مر اليوم أو كاد ولم تكتمل المشاهدة بعد ومازالت لنا جولة فى عالم الفن .. غير بعيد متحف جويا حيث تنفرد « الجورنيكا » بمكانها الاثير ..

وأخيرا عادت اللوحة الغائبة الى مهدها بعد غربة بدأت عام ١٩٣٧ حتى عادت أخيرا الى الوطن فى عيد ميلاد صاحبها المئوى عام ١٩٨١ .

اللوحة الشهيرة هى « الجورنيكا » التى رسمها بيكاسو فى باريس وصور فيها أهوال الحرب الأهلية الاسبانية .

اللوحة بسيطة صادقة .. أشلاء قتلى وحطام بشر وحيوانات صارخة مذبوحة وانقاض — المدينة التى دمرها جنود النازية . تحمل اللوحة اسم مدينة صغيرة باقليم

الباسك شمال اسبانيا هي مدينة « جونيكا » الوادعة الجميلة .. وقد امتلأت أسواق المدينة بالناس وكانت الشوارع فى ذروة الزحام .. وكأن أهل المدينة كلها خرجوا من بيوتهم فى هذا اليوم ليواجهوا مصيرهم المحتوم .. فما لبثت أسراب الطائرات النازية حليفة « فرانكو » أن ملأت السماء فجأة واطلقت جحيما من قنابلها على المدينة الوادعة ولم تكف عن نيرانها المتواصلة الا وقد قتل اغلب أهل المدينة وتحولت البيوت الى انقاض وملأت الجثث ودكت المدينة دكا ! ..

وصور « بيكاسو » هذه المذبحة البشرية فى لوحته الكبرى وبلا تعقيد فى الرمز أو اللون ..

فقد استخدم بيكاسو .. المشهود له بالالوان الصارخة السيريالية .. فى هذه اللوحة لونين فقط .. هما الابيض والاسود مع أطياف رمادية الابعاد يصور بهما لحظة الفزع الرهيبة فى وجوه واحداق الناس مذبحة لم تفرق بين الحيوان والانسان والرجال والنساء والأطفال .

الحصان الابيض الذى يكاد لو علم المحاورة أن يشكو ويتكلم ويبكي .. وهو يعلك النحيب ملوى العنق ..

« الثور » الصامت الحزين فى مدخل باب البيت المشتعل يكاد يرفع عقيرته بأنين مكتوم وقد غرست فيه الخناجر .

صرخة المرأة التى تنعى البيت وقد تناثرت الاشلاء وتناثرت الايدى وجثث الابناء حيثث تنطق ملامح النساء بالحزن الدفين من بعيد امرأة تدلف الى الغرفة وفى يدها مصباح غازى وكأنها تبحث بمصباحها الواهن عن جسد طريح ..

« طائر » يصرخ بأعلى الصوت .. وكأنه نعيب البوم فوق الخرائب .. ويعبر عن صرخته الدامية بأن يفتح منقاره بأقصى مايستطيع وكأنه لايشق لتلك الصرخة طريقا على أطراف المناقير ..

ازدحمت كل هذه المناظر فى لوحة بيكاسو .. داخل غرفة بيت تدمره القنابل وتزلزله النيران .

وبالرغم من ازدحام اللوحة بالاشلاء والاجساد الدامية وصرخات الفزع الرهيب .. يظل متأرجحا فى سقف الغرفة مصباح مضىء .. يضىء أجزاء اللوحة العريضة ويعلن أنتصار النور على الظلام ..

صور بيكاسو هذه الوحشية فى لوحته ألتى بلغ طولها « ٢٦ قدما وعرضها ١٢ قدما » وهو فى منفاه بباريس عام ١٩٣٧ واشترط عدم عودتها الى أسبانيا الا بعد ان يسقط الحكم الفاشى وتعود الحرية ..

ومات فرانكو عام ١٩٧٥ وبعده بعامين مات بيكاسو .. وبدأت اللوحة رحلة العودة الى ارض الوطن .. وكان ذلك خلال احتفال كبير لم يشهد له مثيل فى مدريد حيث خصص لها متحف مستقل تنفرد فيه تحت حراسة مشددة ولم تضم الى متحف برادو لحاجتها الى تهوية خاصة حتى لا تتلف الوانها البسيطة .

وذلك بعد نزاع طويل بين أهل « مالاجة » مسقط راس بيكاسو التى طالبت باللوحة باعتبارها لواحد من أبنائها .

ونازعتها مدينة « جرونيكا » صاحبة المأساة باعتبارها احق الناس بها لانها تصور مأساتها .

وظفرت مدريد باللوحة باعتبارها العاصمة .

عمتنا النخلة العربية ..
أم النخـــلات الأوربيـــة

واريت وجه الشاعر وضعته في جيب معطفي فذاب مع حبات المطر وابرزت جواز سفر الصحفي — وجهي الآخر ! أستعين به على الطواف والمشاهدة والتجـــوال والمكابدة لحساب وجه الشاعر الذى لا يغيب ..

قال لي واحد منهم ونحن نتسكع في غسق الليـــل هابطين من « الساكرو مونتى » الجبل المقدس للفلول الفجرية :

عرفت كيف تستغل الصحافة لصالح الشعر . ولم توظف الشعر لحساب صاحبة الجلالة كما فعل آخرون !

وقلت لصاحبي وقد شقشق فجر مدريد :

الشعر وحده صاحب الجلالة أما هي فالمعشوقةالاخرى .. التي في رحابها عشت ربع قرن وفي ظلها سافرت على جواد الشعر .. أشدو كل فجر وضحى واغنى عندما يأتي المساء !

لاحت النخلة ونحن ننحـــدر من أعلى الجبـــل الى سفوح قرطبة .. وحيدة نائية تغتسل دموعها بماء السماء المنهمر منذ أشراقة الصباح حتى استدارة الضحى ..

وكأنها تغتسل من غبار السنين الطويلة وهى مهاجرة عن الديار بعيدة المزار وحيدة — الخلان والجار .. تبدو عاقرا فلا ضرع لها ولا ثمر وليست بذات طلع نضيد فهى أول نخلة وطأت ارض قرطبة ذات القلوب المشقوقة —

زرعها غريب نازح مثلها هو ذلك الفتى العربى الجسور الذى فر بليل وهو يرى عرش آبائه من ملوك بنى أمية ينهار فى دمشق على يد الخليفة العباسى السفاح .. فيهيم على وجهه شريدا طريدا طيلة خمس سنوات فى الشمال الافريقى الى أن يستطيع أن ينتزع له وطنا ويبنى قوائم عرش جديد لاجداده السالفين ويعتلى لاول مرة عرش الاندلس .

ويجلس الفتى الامير عبد الرحمن الاول فى قصره الذى بناه على نسق دمشقى مثل قصور آبائه ليتنسم ريح دمشق الفيحاء ويتشمم عبير غوطتها الخضراء وقد ركضت السحب فى سماء قرطبة واسراب القوم يهرولون الى بساط الخضرة ونقش الوهاد ومروج العشب معانقين ذلك الكائن الفارع النخيل الذى لم تظله سماؤهم من قبل وقد انتصب شامخا عليا يطاول النجوم ويظلل بسعفاته الخضر وجنات الثمر ويساقط رطبا جنيا .. كلما هزت الريح جذع النخلة المغتربة التى كانت احدى الغرائب وفريدة العجائب فى أرض الاندلس .

كان ذلك الكائن الفارع الجديد أول نخلة غرست فى رحم تلك الارض الجديدة عرفتها ربوع الاندلس وصارت فيما بعد اما لكل نخلات الاندلس بل ولكل نخلات أوربا التى لم تعرف النخيل من قبل .. والتى دبجت فيها الرسائل والمقامات وذكرها ناشرو الذخيرة ونفح الطيب مثل مقامة « أبو الحسن الجذامى فى نخلة غرناطة ورسالة ابن برد عن النخلة وكان ذلك الفتى النازح الغريب اول أمير عربى يتربع على عرش الاندلس » !

اطال الفتى الفارس الامير النظر فى النجوم وتطلع الى

عمته النخلة وقد أنس بها بعد وحشة وهي تتوسط حديقة قصره « الرصافة » بعد أن جلبها من مهدها العربي التليد إلى مهدها الاوربي الجديد واحتشدت أمامه صور الرحلة الشاقة الطويلة منذ هاجر حتى أستقر .. والتفت اليها يناجيها بلسان عربي لا يفهمه بين شجرات الحور والزيتون والكروم الا شبيهته في الغربة والنوى والمنبت والثرى نخلته العربية الشماء فيقول :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى
وطول ابتعادي عن بني وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيهما غريبة
فما لك في الاقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن في المنتأى الذي
يسح ويستمري السماكين بالوبل

وكأن السماء استجابت للفتى النازح فسقت النخلة حتى ارتوت وسقت الوادي الاخضر كله من المطر المنهمر منذ الصباح الباكر وهي تنتفض تحته كالطيور المهاجرة بللها القطر ! لا تحتمي بمظلة ولا جدار ولا تأوي الى جبل يعصمنا من الماء .. فالجبل سقفه السماء ، والسماء مظلة المسافر .. فلا مهرب لنا الا أن تغسل غبار السفر بقطرات المطر وننطلق مرحين كالاطفال يشجيها خرير القطرات وتلعب بأقدامها العارية في مياهها الجارية ..

ونرقب نخلتنا العربية ونحن نقترب منها دالفين من أبواب قرطبة الممتدة على نهر الوادي الكبير قصبة الاندلس وعاصمتها الاولى ومنارة علومها وفنونها ومهد أعظم

الفلاسفة والشعراء والعلماء والعشاق ومستقر زرياب الذي ازدهر فنه فيها بعد أن فر بليل هو الآخر من وطنه البغدادي .

لم يزرع عبد الرحمن الداخل حفيد هشام ابن عبد الملك منذ هرب من فتكة العباسيين بدمشق ودخل الاندلس فسمى الداخل لانه أول من دخلها وأنشأ امارة قرطبة .

لم يزرع عبد الرحمن صقر قريش الفتى الامير المهاجر نخلة فى أرض قرطبة فقط بل زرع بجانبها عبر ثلاثة وثلاثين عاما .. الشعر والعلم والفن والفلسفة ومجالس الغناء والطرب والموسيقى ومجارى المياه والقصور النادرة والحدائق والبساتين والمكتبات والطواحين الهوائية وقنطرة النهر الكبير وشيد فيها دعائم ملك جديد وطيد وحضارة وارفة امتدت عبر اسبانيا نافذة الحضارة على البحر الابيض ..

تلك الحضارة الاندلسية التى كانت أجمل وأعظم من ان تقارن بغيرها من الحضارات لانها لم تقم على أساس فارسي أو اغريقي او روماني ولا على أساس قوطى كما كان قائما فى أسبانيا أو بربرى وكما كان فى المغرب .

بل كانت حضارة عربية خالصة نقية دامت أكثر من ثمانية قرون يتسابق الآباء والابناء لتعلية صرحها وتوطيد ملكها جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن .. حتى انهارت على رءوس الاحفاد الذين لم يحسنوا الملك ولم ينهجوا نهج الاجداد البناة .. فغرهم الملك وفتنهم اللهو والنعيم .

بنو امية فى قرطبة وتحفتهم الخالدة الجامع الكبير

الذي استغرق بناؤه ٢٥٠ عاما ووضـــع لبنته الاولى عبد الرحمن الداخل واتمه المنصور بن أبى عامر .

وبنو عباد في أشبيلية التى تزهى بأطلال الجيرالدو وبرجها الملون الشهير .

وبنو نصر فى غرناطه حيث جبال الخضرة وقصـر الحمراء العجيب وبجواره قلعة الحمراء العتيقة وقصـر جنة الريف .

كان الحكم مستقرا راسخا فعلا صرح الحضارة العربية وارتفع بينما كان البربر والمسيحيون يعيشون فسادا فى البلاد وكأنما كان العرب أنفسهم حصنا منيعا منحه الله للأندلس ليحميها من الدمار والتخريب ويترك لها هذه الآثار الناطقة حتى اليوم .

وكان عبد الرحمن الداخل .. شاعرا رقيقا .. لم ينس قط وهو الملك المتوج وطنه العربى الاول لم يخفت حنينه الى الديار حيث شـــب ونمـــا ولا الى أهليه وأحبته وذويه .. فيقول مناجيا دياره الأولى :

أيهـــا الراكب الميمـــم أرضى
اقر منى بعض الســلام لبعض
ان جســمى كما علمت بأرض
وفـــؤادى ومالــكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنـــا
وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفــراق علينـــا
فعسى باجتماعنا ســوف يقضى

زرياب النخلة الذهبية السوداء !

لم تكن النخلة العربية الفرعاء هي الريح العطرة القادمة من أرض العرب وحدها .. وانما انتصبت نخلة من أخرى ذهبية الجذوع ولها فروع وثمرات الالحـان والنغمات وأصوات العنادل .

نخلة وارفة الظلال .. نشرت ظلها وأنت أكلهـا ألحانا وانغاما وتصاوير تجاوزت حدود الاندلس الى انحـاء اوربا ..

فقد ضاق عندليب زمانه الفتى الفارع الاسـود « زرياب » تلميذ الموصلى الذى حقد عليه وهو معلمه .. وضاق بكيد ذلك المعلم وحسده وغيرته .. كمـا ضاق استاذه اسحق بغروره ـ وطموحه وتطاوله حين نبذ عود سيده بين يدى الرشيد فى مجلس طرب وغنـاء قائلا يشترط على الامير :

« ان شاء مولاى سماع الغناء الذى ابتكرته فيجب أن اعزف على عودى الذى صنعته بيدى » .

وعزف الفتى .. ومال الخليفة طربا وخلع عليه .. وحشا فمه ذهبا ويكيد له الاستاذ المعلم كيدا حتى يجبره على الرحيل والا فالخطر يترصده والموت يتوعده .

ويتطلع الفتى الاسود الزريابى الصوت واللون ـ فهو « زرياب » لسواد لونه وهو زرياب لانه اسم من أسماء الذهب ـ تطلع الى نخلة بلادة النائية المهاجرة مثله فى ارض قرطبة وقرر أن يأوى الى جذعها ويستظل بفروعها كما فعل من قبل الامير العربى .

ويرحب الامير الجديد عبد الرحمن الثانى بالفتى النازح

فيهبه العطايا والهدايا ويقطعه الدور والبساتين ويفسح له في قصره مكانا رحبا « ٢٠٦ هـ - ٨٢١ م » ..

يتألق نجم زرياب في سماء الاندلس كما تتألق في عصره فنون البناء والعمران في أنحاء قرطبة .

ويتألق على يديه فن الغناء وتتدفق عبقريته في التجديد والابداع وشغل الفتى الموسيقى الدنيا والناس .

وكان زرياب متأنقا قشيبا فكه اللسان عذب الحديث والمسامرة ذواقة للاطعمة والاشربة نديما كريما نظيف الملبس رفيع الذوق راوية للشعر والملح النادرة .. جذاب الوقع والايقاع فالتف حوله كبار القوم وعشقه مسامروه وسامعوه وأطلق الامير يده في فن الغناء والموسيقى فأنشأ مدرسة لتعليم الموسيقى وادخل في مناهجها فن العزف على العود والجيتار وولد منهما نغمات جديدة ونشر في الاندلس المزهر والقيثارة والقانون والرباب والناي والمزمار والبوق والدفوف وأضاف الوتر الخامس للعود واستحدث الريشة « مضراب العود » وتخرج على يديه الكثير من أهل الغناء ..

وعاشت قرطبة أزهى عصور الفن والغناء والشعر في ظل الفتى الكردي الوافد من بغداد .. ومازال « حمام زرياب » شاهدا من آثار قرطبة على ذكراه للآن ..

وكأن « مانويل ماتشادو » الشاعر الاسباني الكبير كان يقصد زرياب وقرطبة بخاصة والغناء العربي بعامة بقصيدته الرائعة « أغاني » التي تقول كلماتها :

« خمر وشعور وقيثارة شعر
هي صانعة أغاني أرضي
أغاني .. من يقل أغاني فكأنه قال الاندلس

الزهـراء "فرساى" العـرب
وزهرة أكليل جبل العروس

كانت الزهراء جارية جميلة حسناء عشقها ثالث خلفاء قرطبة « عبد الرحمن الناصر » وهام بها حبا . وكان للملك محظية أخرى تركت مالا كثيرا وأمر الملك تكريما لوصيتها ان تدفع ثروتها فدية للاسرى المسلمين فى يد الفرنجة .

وطلب الاسرى فلم يجد .. وقالت الزهراء للملك وكان لا يرد لها طلبا :

اشتهيت لو بنيت لى به مدينة تسميها باسمى وتكون خاصة بى ..

ولم يجد الملك العاشق بديلا خيراً من تنفيذ وصـية الحبيبة الراحلة .. بتخليد ذكرى الحبيبة الزهراء فبنى لها هذه المدينة التى مازالت أطلالها شاخصة دفينة حتى الآن تحفل بالنفائس الفنية والكنوز النادرة التى قـد يكتشفها المنقبون حينا بعد حين وقرر الملك ان يبنى مدينة كبيرة تكون تحفة للناظرين تخلد اسم حبيبته الزهراء عبر الزمان وتنافس الاثر الاشم الرابض فوق أرض قرطبـة جامعهـا الكبير بأروقته المؤلفة من احد عشر قوسـا على شكل حدوة الفرس تقوم على أعمدة رخامية تعـلوها تيجان الكنائس القديمة وتستند جـدرانه على ركـائز ثابتة قوية كانها القلاع .. حتى تحول المسجد الى كنيسة عند سقوط قرطبة عام ١٢٣٦ م ثم بنيت كاتدرائيـة قوطية الطراز فى قلب المسجد ذى الالوان الزاهيـة والزخارف

العربية التى تخطف البصر .. حتى تدمع العين على مجد مضى ..

وأطلق الملك على المدينة الكبيرة الجديدة التى طاولت الجامع الكبير شموخا وشهرة عليها أسم الحبيبة الغالية « الزهراء » وكانت أشبه « بفرساى باريس » أو حدائق التوليرى بقصرها المنيف .

واستقر الخليفة العاشق فى المدينة الجديدة فى القرن العاشر وتوالى من أعقبوه .. واستمر العمل فى المدينة خمسين عاما متواصلة حتى اكتملت الزهراء تتالق بقصورها الذهبية ذات الرخام الملون والاحواض المنقوشة بالذهب وصهاريج الزئبق والأبواب التى رصعت بالعاج والابنوس والجواهر النادرة حتى اذا انعكست الشمس خطفت الابصار والقلوب وبدت المدينة كما سماها المؤرخون « فرساى المسلمين » بعد أن جعلها عبد الرحمن الناصر مقرا للعرش الملكى ورجال الدولة .. كأنها عجيبة جديدة من عجائب الدهر السبع .. تبعد عن قرطبة ثلاثة أميال وتستلقى فى ظل جبل « السيراموريتا » أى « جبل العروس » وقد حفت بها البساتين وعيون الماء والنوافير والطيور والزهور ..

وهبت رياح الزمن على المدينة وقصرها وعلى الخليفة ومحبوبته الزهراء فاندثروا فى باطن الارض حتى اكتشفت فى القرن الماضى .. بعد عمليات الحفر التى قام بها « ريكاردو بوسكوى » بتكليف من الحكومة الاسبانية واكتشفت الآثار المطمورة تحت الارض مثل قصر الخلافة وقاعة عبد الرحمن الناصر ثم مسجد الزهراء ..

مراثي مدينة الزهراء

وبكى شعراء الاندلس الاسبان مدينة الزهراء بـكاء مريرا .. وصدر ديوان كامل يضم « مراثي المدينـة » لعدة شعراء اشهرهم شاعر مدينة الزهراء الذى عشـق الشعر العربي وتأثر به هو الشاعر : « ريكاردو مولينا » الذى يقول باكيا اطلال الزهراء :

عظيم مصنع المرمر
القصر النبيل بجدرانه ذات الشرفات
الابواب المعدنية من الارز والبرونز
بيد أن الاعظم من العظمة ذاتها
هو رغبة القدرة التى تلهب بأجيجها اللاعج الضـلوع العزلاء .



جميلة القاعة المانوسة المطرزة من أجل الحب
النبع الصافى الموسيقى الذى ينتحب ويغنى ..
بيد أن الاجمل من الجمال ذاته
هو ذلك الشوق المر الذى يستيقظ !



ماذا بقى فى المئذنة ؟ وماذا بقى من القصر ؟
ماذا بقى من السلطان ؟ ماذا بقى من الارادة ؟
بقى رنين الحجارة .. ريح حزينة !



وشاعر آخر هو « سباستيان نابارو » يكتب أروع القصائد فى بكائيات الزهراء من أرقها قصيدته « الزهراء وردة » وقد تقمص فيها الروح العربية وعكسها فى وهج الكلمات :

لقد ماتت الازاهير والياسمين والزنابق والسرو
وذبلت الزهرة
« وعبد الرحمن » يبحث في الظلال عن الياقوت البارد
في عمامته
وفحول الجياد العربية تحتضر أعرافاً وشقائق نعمان
« وفضل » المغنية تنهض مثل الشحرور الفض
فوق بساط اللهب
والمباخر تتوهج والحكم يحلم بالكتب وقناديل البرونز
والمدينة الوردة تتبختر فوق سوريا وبيزنطة وبغداد
وفارس
والمدينة الدلفي واللبلاب وزهرة العسل تزهر زهرة .
والباز يلمحك منعطفة بالعوسج والكروم
مثل عنقود غنائي بين كهرمان الصهد المشمس
وأبنوس جبل العروس حيث تنتظر العروس !
***
الاظافر المفسدة نخلت المرمر
وخمشت الاقواس ، وشي الدمقس
ولطخت شجر اللوز بالتراب
حمامة لؤلؤية تدمى في الثرى
من الازرق السماوى الى الوردى
والعشب الاخضر والعاج ..
وربوة بيضاء من الكافور تنساب من اشبيلية الى المغرب
من فلورنسا الى اللوفر ..
وزهرة اكليل الجبل تنتشر مثل ماء الايمان
حينما تهوى الزهراء متناثرة !
***

وكما هوت الزهراء .. هوت بعدها قرطبة الحسناء التى فاقت المدن والامصار وبكى الشعراء العرب قرطبة كما بكى شعراء الاسبان الزهراء :

بأربع فاقت الامصار قرطبة
منهن قنطرة الوادى وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة
والعلم أعظم شيء وهو رابعها !

القلوب المشقوقة زينة الدنيا

أغنية بسيطة رقيقة سجلتها راهبة شاعرة هى « هروزفيتا » تعبر فيها عن اعجابها بقرطبة .. ذكرتها المستشرقة الالمانية « زيغريد هونكه » فى كتابها « شمس العرب تسطع على الغرب » وتقول كلماتها :

« قرطبة المدينة الشابة هى زينة الدنيا .. قرطبة شهيرة بجمالها فخورة بقوتها .. قرطبة هى التى حوت كل شيء تزهو به المدن » .

هذه هى قرطبة .. ومعناها القلوب المشقوقة .. التى التأمت على يد العرب .. وقد بلغناها بعد رحلة عبر الجبال استغرقت ست ساعات بالاتوبيس من غرناطة وهو يتلوى بنا يمنة ويسرة وينحدر ويهبط حتى يكاد ينكفىء وتنخلع معنا قلوبنا وتنكفىء . اونتوقف عند بعض القرى لنلتهم بعض الشطائر واقداح القهوة المستعين بها على البرد والسفر والمطر يغسل الطريق ويسقى الشجر المتناثر حواليه ومروج الخضرة فى قمم الجبال وبطن الوادى والحصون القديمة تلوح من بعيد كأنها أشباح الماضى الصخرية العتيقة وتضاريس الطبيعة

الفطرية التي نحتت منها يد القدرة أروع التماثيل والاشكال وتطوى العجلات الارض طيا تجوس خلال القرى والمدن وقد بدأت الشمس تسفر عن وجههـــا وتغمر وجه الارض بشعاع من الضوء الحنون فتلوح لنا حصون اســـبيخو ومزارع كاسترودل وبرج الشمس فى مدينة « باينا » وكنالس « دل صول » ثم بلدتا لوك وثويروس حيث « كهف الوطواط » ألتى برزت فيه رسوم وأشكال طبيعية تكونت من الرواسب الصـــخرية والجيرية التى تدلت من سقوف المغارات وكأنها من أعمال كبار النحاتين والفنانين .

وهبت ريح قرطبة من بعيد ولاحت معالمها رويدا رويدا فتنسكب رعشة خفية فى الاعماق .. نابعة من قـلوب الاحفاد وقد هرولوا الى مواطن الاباء والأجداد .. فلم يجدوا الا آثارهم التى تدل عليهم .. وقد فتحت قرطبة ذراعيها لنا .. وكأنها تدرى صلة النسب الغابر وأواصر الدم المراق .. وقد بلغ بنا التعب كل حد من طــول الركض فى مدن الاندلس الحبيبة عبر القطار والعربات مرة والطائرات مرة أخرى ..

هى قرطبـــة اذن وقد حط الرحال بنا .. فى ربوع زينة الدنيا وعاصمة المجد العربى القديم .. وقد جذبت كل الملل والنحل من كل فج وازدهرت الصناعات والحـرف وطلاب علم وصناعة وفن وتجارة وحرف تدفقوا عليهـا وتكاثرت بها البعثات الوافدة من المانيا وفرنسا وانجلترا وسائر مقاطعات اسبانيا طلبا للعلم والفن .. وازدهرت الحركة الفكرية والحضارية ازدهارا يضارع ويفــوق الازدهار البغدادى .. وتميزت هذه الحركة بمـــلامح جديدة مستقلة مضيئة بعد أن تحررت من شوائب الاغريق

وعلماء المشرق الاسلامي .. لتطل بوجه أندلس صرف .. فلمعت في سمائها نجوم العلم والفن والفلسفة والدين امثال :

ابن حزم صاحب الطوق وابن طفيل صاحب حي بن يقظان وابن رشد المعلم الثاني وابن ميمون والقرطبي . وابو مروان بن زهر أعظم طبيب بعد جالينوس ولسان الدين ابن الخطيب صاحب الوزارتين صاحب كتاب الاحاطة وموشح « جادك الغيث » والبطروجي تلميذ ابن طفيل وابن جبير الرحالة الشهير واخيرا ابن زيدون عاشق ولادة وابن شهيد الاندلس صاحب « التوابع والزوابع » ذلك عدا شهرة جمالها في مروج الخضرة وجداول الماء والنافورات والبساتين واشجار العنب والسرو والتين والزيتون والجوز واللوز والرمان والكروم عبر حاراتها التي تفوح بعبق التاريخ مثل حارة الازهار واركان الذهب واولاد لارا السبعة وزقاق المنصور وضواحيها الثماني والعشرين التي امتدت حولها في عصر الخليفة الناصر . اما احتواؤها كل شيء تزهو به المدن فقد اجتذب بها العواصم الاوربية في اضاءة شوارعها ورصفها حيث كانت شوارع قرطبة تضاء بمصابيح ثبتت على حيطان المنازل وتباشر فيها اعمال النظافة عن طريق عربات القمامة التي تجرها الثيران تمرق من خلالها ازقتها العديدة المتشابكة المزهوة التي لا تنتهي ولا تكاد تتسع لاثنين معا .. وتقول صاحبة شمس العرب تشرق على الغرب :

« ومضى على ذلك قرنان من الزمان قبل ان تتخذ باريس عام ١١٨٥ من قرطبة مثالا لها فترصف شوارعها وتنظفها ومضى قرن آخر قبل ان تحذو بقية المدن الاوربية حذو باريس . ! »

وتبقى مكتبة قرطبة ذات الربعمائة الف كتاب حدثا عجبا فقد كان حاكمها الحكم مولعا بالكتب والعلم وأخذ يجمع المخطوطات النادرة ويدفع فيها الثمن الكبير واقبل العلماء على « الحكم » .. أشد أمراء الاندلس عنفا وارقهم قلبا .. فشجعهم على البحث والتأليف فصدرت الكتب العديدة وحذا حذوه أمراء الاقاليم .. حتى قال ابن خلدون يسجل هذا الازدهار .

« حينما كان يموت عالم في أشبيلية ويراد ان تباع كتبه بثمن عظيم ترسل الى قرطبة وان مات موسيقى في عاصمة الاندلس كانوا يرسلون آلاته الموسيقية الى أشبيلية التى ولع أهلها بالموسيقى أشد الولع »

سقى الله اطلال الاحبة

ومرت السنون وتوالت وقرطبة قصبة الاندلس وزينة الدنيا حتى طويت صفحة الامويين عام ١٠٣١ م وانهار العرش العربى وظلت بقية من صراع كأنها الرمق الاخير في جسد الحضارة العربية المحتضرة هناك تتردد فى صدور أمراء غرناطة واشبيلية حتى تقطعت الانفاس ودفن الجسد تحت أنقاض القصور والحصون .. وتسربت حضارة العرب الخالدة خلال عمليات الغزو الاوربى والبربرى ومعها تسربت بقايا الدم العربى فى أوصال الغرب وعروق الشمال الاسبانى وحمل الاسرى ريح الاندلس العربية فيما حملوا وانتشرت الجوارى العربية فى قصور « نورماندى » وغيرها وتزوج الامراء منهن وانتشرت الموسيقى والغناء وأينعت نطفة الدم العربى فى

العيون السود والجدائل السود والاهداب الوطفاء والجمال العربى النادر الذى تراه فى ملامح الاندلسـيات حتى الآن ..

وتقلص ظل العرب نهـائيا .. وطويت صـــفحتهم فى الثانى من يناير عام ١٤٩٢ عندما علق « الكردينال بدرو » الصليب على قصر الحمراء ..

وأحرق الغزاة والمتعصبون مليونا وخمســة آلاف مجلدا من تراث العرب .. وبكى الشعراء ماحلا لهم البكاء حيث لا يجدى دمع ولا حسرة .. وبقيت لنا من أشعارهم العبرة والتذكار .. وصدق ابن زيدون حين قال :

سقى الله أطـــلال الاحبـة بالحمى
وحاكَ عليهــا ثوب وشى منمنمــا
وأطلع فيهــا للأزاهــير أنجمــا
فلكم رفلت فيها الخرائد كالدمى ..
اذا العيش غض والزمــان غــلام

ســقى جنبات القصر صوب الغمائم
وغنى على الاغصـــان ورقُ الحمائم
« بقرطبة » الغــراء دار الاكــارم
بلاد بها شــق الشباب تمائمى ..
وانجبنى قــوم هنــاك كــرام !

عندما تمطـــر أوتار القيثـارة

الليلة السلطانية الاندلسية التى ترتجف لهـا الارض ويشهق الجسد بالعطر والشوق تحت قمر التمام .. وقد امطرت أوتار القيثارة الحانا ساخنة كقطرات من دموع عاشق .. هى آهات وانات .

وترتجف الاوتار الحزينة فى الهواء الرطب بالوجـد والشهوة وتحوم الاغنية الاندلسية وكأنها تنبعث من قبور الاجداد لتطاردنى فى الليلة السلطانية الاخيرة فى رحاب الاندلس .

انطوى الليل .. وسكن خرير النهر ونامت المدينـة الا من أصوات الجيتار والقيائر تنبعث مع تباشير الفجر وكأنها تعزف لنا لحن الوداع .

وتختلط أصوات السهارى والسكارى من الشـــباب والحسان عشاق الليل والموسيقى وقد أفترشوا الارض تحت أقدام التماثيل والنوافير وفى ظل الكنائس والميادين الصغيرة .. على شـــــاطىء نهر الوادى الكبير يغنون ويرقصون ويشربون ويبيعون أرغفة الشواء وشطائر لحم الثور الشهيرة الرخيصة والجبن الابيض الغالى الثمـن وطبق ذيل الثور الشهير والمرق الحريف ونبيذ قرطبـة الابيض الشهير ونبيذ « موريليس » المعتق مقابل دراهم معدودة تطعم بها وتصغى الى موسيقاهم وغنائهم وتشاركهم رقصاتهم وانى للنازح الغريب أن يخاصر حسناء اشبيلية

او قرطبية وكل حسناء تخاصر فتاها وتنتحي به مكانا قصيا .. فلا تسمع منهما الا حفيف القبل وهمس الغزل وصنوف التنهدات ..

كانت الليلة الاندلسية توافق عيد العمال .. اشهر اعياد الاندلس .. اضيئت الميادين والازقة وازينت الدروب والعتبات العتيقة واطلت النساء والبنات من نوافذ البيوت كما تطل البدور من وراء السحاب وقد غصت الساحات بالفتيان والفتيات والعشاق والعاشقات والاطفال ساهمون حالمون كانهم الاقمار والازهار وعابروا السبيل مثلى ومثل رفيق الليلة الاخيرة العالم الاديب الفنان . عاشق الجنوب الاندلسي طوال ربع قرن عاشه في ربوعه وجال في دروبه وحفظ خوافيه كانه يجوس في اعماق الحسين والامام .. يطوف معي الليل كله على الاقدام .. نجوب كل هاتيك المجالي ونقف على الاطلال الخوالى .. ويسترق بين الحين والحين نظرة محسورة يتسلق بها كل نافذة ويدق قلبه فوق كل باب وتضطرب انفاسه عند كل منحنى وزاوية كأنه يبحث عن كنز مفقود .. أو يشم عطر حبيب قادم من بعيد .! وتدمع عيناه من وراء نظارته السميكة عند كل نخب .. بحثا عن وجه حبيبته القديمة التى عشقها منذ خمسة وعشرين عاما حين وفد للاندلس يعد للدكتوراه في الادب الاندلسى ويصبح الآن رئيسا للقسم الادبى بجامعة القاهرة .

أختلطت على رفيقي الفنان الصعلوك الذبان وتشابهت الاطلال ونسى معالم الاثار الاولى .. وضل الطريق الى بيت ليلاه ويلفنا الصمت واساله فلا يبوح فانشده أبيات

المجنون فينتبه وكأنما لدغته أفعى .. وكأنى عـرفت سره الدفين :

وكنت أذا ماجئت ليـــلى أزورها
أرى الارض تطوى لى ويدنو بعيدها
من الخفرات البيـــد جليســـها ،
اذا ما أنقضت أحدوثة لو تعيدها ..

وأين صاحبى من ليلى وقد نأت الطلول وتلفت القلب ونحن نطوى الليل طيا ؟! حتى جفلت أقدامنا الطريق .. وتحير صاحبى لطول ماشربنا وطول ماطاف .. أى طريق يعود بنا الى قلب المدينة وقد آن لنا أن نعود بعد أن كلت الأقدام .. ودبت برودة الفجر فى العظام .. كأنها شعاع الجليد يهبط عبر الممرات والبنايات ..

ولادة ملكة العاشقات

وغير بعيد .. وفى ظل القناديل العربية الشـــاحبة الضوء وقد لف الضـباب أرتعاشـــة ضوئها الذابل .. انتصب تمثال غريب الرمز والتشكيل أرتفع على قاعـدة رخامية عالية .. توسطت حي اليهود .. وحول التمثال والقاعدة سياج من الخشب الاخضر وحديقة صغيرة من الزهور النادرة ...

يدان من الرخام المرمرى الابيض ارتفعتا نحو الســـماء وقد تشابكت الكفان وتعانقت الانامل وذاب الاثنان فى واحد كأنهما يتحديان الناس أن يفك هذا الرباط اليدوى المقدس واحد منهم وقد نقش تحتهما بيتان من الشـــعر بامضاء « ولادة » يقولان لمعشوقها الاثير ابن زيدون :

اغار عليك من عيني ومني
ومنك ومن زمانك والمكان
ولو اني خبأتك في عيوني
الى يوم القيامة ماكفاني ..

وكتبت تحت الابيات هذه الكلمات بالعربية : « التمثال مهدى من مدينة قرطبة والجامعات الاسلامية الى الشاعرين العاشقين ولادة وابن زيدون بمناسبة المئة التاسعة عليهما « ١٠٧٠ — ١٩٧٥ » .

وقلت لصاحبي وقد كلت أبصارنا من التحديق في التمثال في ضوء القناديل الشاحب والتحليق بخيال الماضي البعيد في اجواء قصة هذا العشق الشهير .

هذه هي ولادة بنت المستكفي التي لعبت بعقول الرجال ..

وقال صاحبي : أو تعرف حكايتها .. وحكايات عشاقها ؟

قلت نعم : ويكفي أن أذكر لك ماقاله ابن بسام في كتابه « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة يصف ولادة فيقول :

« كانت في نساء أهل زماننا واحدة اقرانها حضور شاهد وحرارة أوابد وحسن منظر ومخبر وحلاوة مورد ومصدر يعشو أهل الادب الي ضوء غرتها ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها الى سهولة حجابها وكثرة منتهابها تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم انساب وطهارة أثواب .

كانت فاتنة لعوب وغانية طروب .. تحترف فن

العشق وسلب عقول الرجال خاصة الشعراء منهم من أهل الوسامة والغزل ..

وكانت تعرف مواطن جمالها وبواطن دلالها .. فتميل تتهادى وتتيه خيلاء وزهوا وتطرز أبيات الشعر على ذيل قميصها وهو تخطر بين عيون الرجال الشاخصة الولهى تقرأ على ثوبها هذه الابيات :

أنا والله أصلح للمعالي
وامشي مشيتي واتيه تيها
امكن صاحبي من صحن خدي
واعطي قبلتي من يشتهيها

ويعبق العطر وولادة تخطر بثوبها المطرز الحواش بهذا الشعر المثير وتمشي فوق فتات المسك والعنبر .. فقد كانت برزة نزعت حجابها وارسلت شعرها تخالط الشعراء وتساجلهم ويطمع فيها الطامعون فاذا بها امنع عليهم من الحصون كأنها الصيد الحرام ولا يظفر منها العاشقون الا بالنظرة العجلى .. وهي تعرف ذلك وتعلنه على الناس فتقول :

انى وان نظر الانام لبهجتى
كظباء مكة صيدهن حرام
يحسبن من أنس الحديث زوانيا
ويصدهن عن الخنا الاسلام !

وعدنا بعد الأي .. وانصرف صاحبي العاشق القديم الى فندقه الفاخر وانحدرت الى الزقاق المواجه زقاق المنصور بن محمد رقم ٤ وكأني اعبر احد ازقة بغداد أو دمشق او حي القلعة المصرى ..

وما أن ضغطت على جرس الباب حتى أطلت العجوز

السمينة القصيرة البيضاء ضاحكة السين والثغر .. لتفتح لى .. واصعد الى غرفتى لارتمى فى الفراش وقد تسللت انوار الصباح الاولى من خلال زجاج النافذة وهبت العصافير من اوكارها تزقزق وترف وتلتقط حبات الماء من النافورة الجميلة وتغنى للصباح الجديد نشيد البراءة والصفاء ..

ساعة أو ساعتان .. اغفت خلالهما عينان .. ولم تغفل الصور والشجون .. وارتفع صوت السيدة المرح يوقظ النائمين ...

وغادرت فراشى فى الساعة السابعة صباحا وخرجت مع نسمات الصباح الاولى ألقى على الازقة القرطبية تحية الرحيل واعبر البوابة القديمة الى الشارع الرئيسى الكبير لاجلس في الحديقة الصغيرة ذات المطعم الانيق .. ارشف فنجان القهوة المرة الصباحية .. واتسلى بمراقبة الاطفال وقد هبوا مبكرين كالطيور ينتشرون فى الحديقة وبيدهم الحلوى كانهم منها بعض الزهور .. ثم ادلف الى المسجد الكبير مرة اخرى اجوس فى ردهاته وابهائه صامتا حزينا .. وادخل الغرفة البللورية بما حوت وراء زجاجها من كنوز وعلى جدرانها لوحات القديسين النادرة وابحث عن القبلة .. لاصلى ركعتين .. فاذا بها محراب من نقوش وتماثيل وايقونات ..

والقى نظرة الوداع الاخيرة متسللا بين الاعمدة الصامتة الخرساء والقباب الزجاجية كهارب من ظله وماضيه ...

واخرج دامع القلب ولاودع الام العجوز صاحبة « بنسيون المنصور » واحمل حقائبى الى محطة القطار عائدا الى العاصمة لانطلق منها الى « توليدو » الاسبانية اى طليطلة العربية القديمة .

نبـوءة الفتـح القـادم
ومائدة الزبرجد الخضراء

ويحكى ان « لوذريق » حاكم طليطلة العاصـمة وآخر ملوك القوط السبعة وعشرين رأى بيتا عليه ستة وعشرون قفلا فجمع وزراءه وطلب منهم فتح هذا البيت لظنه ان به كنوزا وفيرة ولكن الوزراء خالفوه ونصحوه أن يقلد الملوك الستة وعشرين السابقين ويضيف قفلا على نحو ما فعل سابقوه اثر توليتهم العرش .

ولكن لوذريق أصر على فتح هذا البيت المقفل ، فجمع له الوزراء أموالا كثيرة عن مقدار مايظنه فى هذا البيت على ان يتركه على حاله فأبى .

وأمر لوذريق بفتح البيت .. ولم يجد بداخله غير مائدة عظيمة من ذهب وفضة مرصعة بالجواهر ومكتوب عليها : « هذه مائدة سليمان بن داوود عليهما السلام . وبجوارها تابوت عليه قفل ومعلق عليه مفتاح فأمر الملك بفتح التابوت فوجده فارغا ولكن رأى فى جوانبه « صور فرسان مصورة بأصباغ محكمة التصوير على أشـكال العرب وعليهم الفراء وهم معممون ومن تحتهم الخيـول العربية متقلدون السيوف المحلاة » وقد كتب فوق تلك الصور سطور بلغة قديمة كلمات تقول :

« اذا كسرت أقفال هذا البيت وفتح التابوت تظهر مافيه من هذه الصور فان هذه الامة المصورة تدخـل الاندلس فتغلب عليها وتملكها ! »

ووجم الملك وركبه الهم .. ووجم الوزراء وأحزنهم

لسرع الملك .. وبدأ العمل على تحصين البلاد ضد نبوءة الغزو القادم .!

لم تكن هذه الحكاية سوى رد فعل صامت .. لاستيلاء العرب على بلاد المغرب في الوقت الذى تبوأ فيه لوذريق العرش .. والعرب يكتسحون الديار والقلاع كالسيل المنحدر وكان لابد لهذا السيل أن يجرف كل العوائق فى طريقه نحو الفتح الكبير .. ويفرق ربا الاندلس بما فيها من حسن وجمال وبما جمعت من اشتات المنافع وطيب المزارع ووفرة الثمر وعذوبة المياه وجمال نسائها وحسانها اللائى وصفهن طارق فى خطبته الشهيرة قائلا :

« وقد بلغكم ما انشات هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان المقصورات في قصورالملوك ذى التيجان » .

وصاح طارق صيحته الشهيرة أين المفر ؟ والتحم الجيشان وفر لوذريق مدحورا محسورا .! وبادر طارق بالاستيلاء على « طليطلة » قبل أن تتحصن بهـا الفلول الهاربة التي طاردها طارق حتى مدينة المائدة حيث عثر على مذبح كنيستها الذهبى المحلى بأغلى جواهر « طليطلة» واستقر طارق بن زياد بها دون غزوات جديدة ليحبط مؤامرات القوط ويؤمن الطريق لسائر مواكب الفتح ودخل عليه الناس يسألونه : « أنت أمير نفسك أم فوقك امير ؟! فقال : بل على راسى أمير وفوق ذلك الامير أمير عظيم » ولكن طارق فى اندفاعه نحو طليطلة ترك وراءه ثغرات لقي بسببها حسابا عسيرا وصمدت اشبيلية في

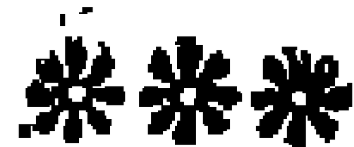
وجه العرب .. وتمركز القوط بها وراء أسوارها الحصينة ... لولا خيانة سكانها اليهود .. الذين فتحوا أبوابها انتقاما من ظلم القوط سادتهم فسقطت أكبر المدن وأخطرها على قوات العرب الزاحفة .

وظلت طليطلة في قبضة طارق .. والمسلمون يواصلون زحفهم ضد مقاومة القوط العنيفة حتى قتل لوذريق .. ودخل موسى بن نصير طليطلة ليحاسب قائده الشاب الظفر حسابا عسيرا .. على اندفاعه مزهوا بخيلاء الفتح تاركا وراءه المدن والحاميات بلا حماية .. وشد وثاقه وقالوا : « ضربه بالسوط وهم بقتله لولا تدخل الوليد ابن عبد الملك والمؤكد أنه « وضع السوط على راسه ، فقط . ! »

وانتهت المحاكمة سريعا يقول موسى : « لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يبيحك الاندلس فاستبحه هنيا مريا فقال طارق « أيها الامير والله لا ارجع عن قصدى هذا مالم انته الى البحر المحيط .. » وهكذا لم يلعب النصر براس القائد الشاب ولم يتجاوز العقاب حدوده وظلت طليطلة قاعدة لتنظيمات حملات الفتح .. ومقرا للمجلس الحربى ومنها انطلقت الفرق والحملات على سائر البلاد حتى بلغت مشارف جبال البرانس وفي عامين فقط وطدت سلطة المسلمين .. وعادت الحياة وأقرت العبادات وأمن الناس .

وقد نسبت مائدة سليمان فى بعض لروايات لسليمان لقدمها .. ولما كانت طليطلة مقر البيت المالك فقد نالت كنسيتها أكبر وثمن المنح والهدايا وتنافس الملوك في ذلك اعلاء لذكرهم وتخليدا للعاصمة الجميلة ووصفوها بأنها

« مصنوعة من الذهب الخالص مرصـــعة بفاخر الدر والياقوت والزبرجد وقيل انها من زبرجدة خضراء حافتها وارجلها منها وكان لها ٣٦٥ رجلا » « وانها كانت مائدة خوان ليست لها ارجل قاعدتها منها وكانت من ذهب وفضة خليطين فهى تتلون صفرة وبياضا مطوقة بثـلاثة اطواق طوق لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرد » وكـانت بذلك اغلى واعظم الكنوز التى وجدت فى مدن الاندلس قاطبة علاوة على مائة وسبعين تاجا من الذهب الخالص وكانت المائدة هى درة الهدايا التى احتلت مركز الصدارة فى موكب العودة الى الشام .. فى صيف ٧١٤ م حيث ناءت الدواب بحملها فصنعوا لها مركبات لها عجل « بلغت ثلاث ومائة عجلة » حمل عليها الذهب والفضة والجواهر واصناف الوشى الاندلسي ومالا يحصى من الجوهـــر والطرائف » ودخل الموكب العائد بعد أن مر بالثغـــور والامصار دمشق فى السادس عشر من يناير ٧١٥ م ومعه ملوك من البربر والروم والاسبان وملوك الرنجـة ورءوس البلاد ففرض لهم الشرف .. وخلعت على موسى ابن نصير الخلع ثلاث مرات وقد ناهز الثمانين ودفن فى وادى القرى .



وعادت بنا العربة فى الغروب .. وقد مالت الشمس على حافة الافق المندى بدموع الرحيل .. كانها تنتظـر موقع قدميها قبل أن تسقط فى هوة المجهول .. أو تركب جناح الريح الى عوالم اخرى .. تشرق فيهــا مـن جديد .

والغروب فى الاندلس .. يبدأ فى التاسعة مساء ..

نهار طويل .. وليل أكثر طولا .. يبدأ السهارى وعشاق الليل بعد التاسعة وقد غربت الشمس ومدت حبل الليل الطويل للساهرين .

ويبدا الطريق امامنا شاحبا حزينا .. تتناثر حوله الاكشاك الصغيرة حافلة بزجاجات الشراب والعصير والشطائر .. ونتوقف بين الحين والآخر لنلتهم شيئا يعين على بلوغ الطريق .

كنت بدات الرحلة في الصباح الباكر .. من امام فندق « كريستانا هيلتون » بمدريد الى « توليدو » او طليطلة موطن النبوءة والغزو الاول .. على بعد اربعين ميلا من الجنوب الغربي لمدريد . وانطلق « خوليو » السائق الاسباني الانيق .. بعربته الفاخرة لايلوى على شيء ولا يجيد سوى الحديث بالاسبانية ومعاقرتي الشراب والتهام الشطائر .. وأطباق البحر الشهيرة .. وانواع الجبن الاندلسية اللذيذة .. وفطيرة العجة المجانية .

ولم يكف عن الحديث .. انقل اليه مشاعرى باللغة العربية وبالاشارة والوصف وهو يفعل ذلك حتى دبت بيننا الفة الغرباء حين يلتقون وكل منهم يجهل لغة الاخر .. ولكن تجمعهم لغة مشتركة نابعة من الغربة وافتقاد الانيس .

وانطلقنا ننهب الطريق نهبا ونقف عند الأطلال وبقايا الآثار . حتى بلغنا توليدو « طليطلة » وصعدنا طريقا صخريا مرتفعا يصل الى باب القلعة الكبرى .. لنجوس طوال اليوم في الازقة والدروب القديمة والحوانيت العتيقة التي تشبه حوانيت حي الحسين .. ونعبر الجسور والقناطر ونلوذ بأحضان الجبل وأودية الماء

الفائرة التى تتدفق خلالها أمواج نهر « تاجه » .
وندخل الكنائس « سانت ماريا » وباب الشمس والقلاع والحصون العتيقة .. والمتحف الحربى القديم والقنطرة الحجرية والقصر ومتحف الرسام جراسكو وقصر جاليانا أو قصر الناعورة وكاتدرائية طليطلة أشهر معالم طليطلة والرادرو .. والاستراحة العربية التى تقع على قمة الجبل المعشوشب على شكل حرف « يو » كانت مستقرا لاحد الامراء صممها الفنان العربى .. على شكل هذا الحرف .. ليرى الامير السعيد .. فى جلسته الحالمة بين نوافير الماء وتماثيل الحيوانات ونادر الزهور كل وافد .. أن كان عدوا أو صديقا ..
بانوراما من صنع الطبيعة ترى منها الوادى .. والمدينة النائمة فى أحضانه تنطق بآيات عربية البيان واللسان ..
وتضم هذه الاستراحة الملكية قصرا عربيا عتيقا مازال على حاله منذ بناه رجال الامير .. الارابسك الرائع والقيشانى المزركش والزجاج الملون المعشق .. والاعمدة والاسقف الخشبية والقناديل المدلاة فى صناديقها الصدفية ودوارق الزجاج الزرقاء والخضراء .. وقد امتدت موائد الطعام لتأخذ نفس الطابع العربى .. يتضوع فوقها عطر الشواء والطعام الفاخر .. وباقات الورد والشموع والنمارق والمفارش المطرزة بطرز عربية رائعة .. وقد اكتظ المكان بالرواد والسائحين .. والتمست ركنا قصيا قبعت فيه وكأننى أوى ألى بقايا وطن عربى سالف بعث فى الشعور بزهو الانتماء والخيلاء على كل هؤلاء الوافدين الذين يتفيأون ظل الاجداد ويهيمون فى أودية السحر والخيال لروعة المكان ومايبعثه من عبق

خفي يدور بالإلباب ويلعب بالقلوب .. هو عبق الاجداد القدامى .. الذين قطعوا هذا الشوط الطويل ليبلغوا هذه الاماكن آلنائية ويتركوا فيها تلك الآثار الخالدة .. التى تبهر الناظرين ..

وقفت على حافة الجبل .. وقد انسابت طليطلة عاصمة اسبانيا القديمة تحت اقدام الجبل لوحة خضراء .. تنسكب خلالها المياه .. وتتناثر الابنية والقباب والابراج .. وقد انعكست أشعة الشمس الذابنة كانها تبكي أصحابها الغابرين وقد تحولت بعدهم الى مقر كرسى اساقفة اسبانيا وانا أردد قول الشاعر القديم :

كانت لهم في هضاب العز أبنية

فاصبحوا بين مقبور ومسجون !

مملكة القرنفلة والسقوط الأخير

صعدنا الى القصر على درجات عالية متوالية ونظرت الى أعلاه ـ فأصابني دوار لجأت الى صخرة وجلست احتمي بها ربما كان دوار السفر ، وربما كان دوار ارتقاء درجات السلم الصخرية العالية والنظر الى أعالي القصر وقد هبت نسمات باردة عبر مساقط الدروب ، أو ربما كان دوار القرون الثمانية الاولى التي توالت على هذه البلاد العربية الاندلسية بدأها العرب بانتصارات باهرة ، ثم آن لهم أن يستريحوا من الحروب والقتال فبنوا القصور وزرعوا الخمائل والجنان واتكأوا على وسائد العرش الوثيرة لاهين ناعمين حتى أخذهم الدهر على غرة !

استجمعت أنفاسي لارتقي الدرج الصخري وقد تأبط ذراعي أستاذنا الكبير « يحيى حقي » .. كأنه العصفور الرقيق يحجل بجناحيه بالرغم من الاعوام السبعة والسبعين ، والتقط أنفاسه بدوره ونحن نمشي الهوينى في ظل الاضواء الخافتة عابرين « باب الرمان » وقد صورت ثمرة الرمان على بابه متجهين الى « الحمراء » التي بنيت من تربة هذه البلاد الحمراء فغلب عليها الاسم كما يقال .

ربوة عالية تحف بها التلال يتربع فوقها القصر المنيف وتحيط بها الاشجار الباسقة والزهور العاطرة واغاريد الطيور ..

وقد شيد القصر ثلاثة من الملوك أبو الوليد خامس سلاطين بنى الاحمر ثم ابنه الحجاج ثم ابنه الملقب بالغالب بالله .

على اول أبواب الحمراء نقوش وأشعار ونصوص ورموز وطلاسم رمز واضح من كف ومفتاح الكف ترمز للقوة والاصابع الخمسة وترمز لقواعد الاسلام الخمس كأنما تقول الكف : حذار ! حذار من اى مقتحم لحصنى المنيع والا بطشت به .

أما المفتاح فهو رمز مفاتيح الحمراء وكان أهل الاندلس يتخذونه شعارا على راياتهم .

والرمزان : الكف والمفتاح يتولان باختصار أن الحمراء لن تسقط ابدا الا اذا تحركت تلك الكف من بطن الحجر لتمسك بالمفتاح وتفتح أبواب الحمراء للاعداء .

وهو رمز أسطورى . فلن تبعث الكف من رقدتها ، ولن يمشى المفتاح ليفتح الابواب !

ولكنه يدل على مدى وثوق العرب من بأسهم ومناعة قصرهم الكبير وتدور الايام دورتها وتتحقق الاسطورة ويقتحم أبواب الحمراء بعد انفراط باس العرب ويسقط العرش الذهبى .

ويبنى الامير المنتصر « فرديناند » والاميرة « ايزابيلا » مذبحا فخما فيه سورة العذراء تحمل السيد المسيح مكان الكف والمفتاح .

وتوالى المسير صعدا الى أبواب القصر وقد اطبق الغروب على المبنى العتيق واضاءوا لنا القناديل المرتعشة بضياء راقص طروب وقد لهث القوم لمشقة ارتقاء الدرج العتيق . لتعبر باب الخمر ومن ورائه ساحة الحب

التى تقع فيها احدى جهات قصبة الحمراء حتى تصل اخيرا الى مدخل القصر حيث يجلس الحراس الذين يحصلون رسوم الدخول فى الصباح او يحرسون القصر في المساء .

وتتكاثر القاعات والساحات والردهات والمحاريب وقد زينت بالايات القرآنية وأبيات الشعر ونقف قليلا عند « الغرفة الذهبية » لكثرة مابها من زخارف ونقوش ذهبية ثم « ساحة الريحان » ثم قاعة « البركة » وقاعة « العرش » حيث تمتد برك المياه والنوافير ونقوش شعرية من شعر « ابن زمرك » تلوى الرقاب لمن يريد أن يقراها ويتتبع كل أبياتها من جدار الى جدار وسقيفة الى اخرى :

تبارك من ولاك امر عباده
فأولى بك الاسلام فضلا وانعما
فان رعشت زهر النجوم مخيفة
وان مال غصن البان شكرك .. يمما

ونتابع صور الكتابة الموشاة بالزخارف النادرة .. والمنقوشة فى كل مكان تؤرخ بالاشعار سير الملوك وتصف روعة المكان .

وتأتى « قاعة العرش » تحفة المكان حيث تكثر فيها الحنايا المزدانة بالرسوم والخطوط النادرة وتعلوها قبة كبيرة سقفها من ذهب وجوهر وفيها كان السلاطين يستقبلون السفراء والامراء وشهدت نفس القاعة سقوط أميرها الاخير .

ووصلنا أخيرا الى « ساحة الاسود » وقد لهثت منا الانفاس ونحن نجوس خلال الاعمدة والابهاء .. وقد

أقيمت في الوسط أسود من رخام يتسلل الماء من بين أنيابها وسط نافورة نادرة المعمار وقال لى يحيى حقى وهو ينظر الى المنظر الرائع : أتذكر شعرا يصف هذا المنظر ؟.

قلت : أذكر ما كان مقررا علينا في المرحلة الثانوية وكنت أنساه دائما وأتلقى جزائي من الاستاذ « حسان » مدرس اللغة العربية كلما تعثرت في تذكر تلك الابيات ولم أكن أعبأ بمضمونها .. حتى أتيح لى أن أراهما كل هذه الاعوام .

وانبرى ، الدكتور عبد الله الطيب « عميد جامعة الخرطوم » .. ليردد لنا الابيات وهي لابن زمرك يمتدح فيها السلطان ويصف النافورة .. وقد نقشت القصيدة بخط ذهبي رائع على جدران القصبة الكبيرة التي تتكىء على ظهور الاسود وتصف جريان الماء كأنه دمع الحب العاشق أو الغمامة التي تسقى الاسود .

وهل هى في التحقيق غير غمامة

تفيض الى الآساد منها السواقيا

وقد أشبهت كف الخليفة اذا غدت

تفيض الى أسد الجهاد الأياديا

فيامن رأى الاساد وهي روابض

عداك الحيا عن أن تكون عواديا

قلت للصديقين الكبيرين ربما كان « ابن حمديس الصقلى » أكثر دقة ورقة حين وصف نفس المنظر بأحد قصور اشبيلية حين قال :

وضراغم سكنت عرين رياسة

تركت خرير الماء فيه زئيرا

أسد كأن سكونها متحرك

في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتكسرت فتكاتها فكانما
اقعت على ادبارها لتثورا
فكانما سلت سيوف جداول
ذابت بلا نار فصرن غديرا

***

وعبرنا ساحة الاسود وقد تحول زئيرها خريرا الى قاعة « بني سراج » ذات التيجان الزرقاء والقرميد الاوربى النادر .. والنوافذ الست عشرة والنافورة الرخامية البيضاء التى تجرى فى جسدها المرمرى عروق حمراء ينسبها الناس الى الدم العربى المراق على أرض هذه القاعة وكانه تسلل منها الى جسد النافورة وجرى فيه وظل محتفظا بلونه حتى اليوم .

وتقول الاسطورة أن أميرا من بنى سراج عشق اميرة من البيت الحاكم ، وذاعت قصة العشق وثار السلطان ابو الحسن والد الاميرة واقسم على ذبح آل سراج انتقاما فاحتال عليهم بان اقام وليمة كبرى تكريما لهم واستدرجهم الى القاعة فردا وراء آخر . واعمل أعوانه فيهم قتلا فلا يعرف الثاني مصير الاول وجرت الدماء انهارا على الرخام الابيض الناصع وكأن قطرات الدم تجمدت فوق الرخام وظلت حمراء .. شاهدا على مأساة العاشقين ، ومازالت أصداء صليل السيوف تسمع في الليل وتنبعث معها انات انين مكتوم تتردد فى ساحة الاسود التى شهدت مذبحة تلك القاعة .

ويمضى الوقت وقد اوغل الليل وهبت نسمات باردة والقاعات لا تنتهى قاعة الملوك ، وقاعة الاختين وبهما

من الرمر المجلو والاخشاب المطعمة بالعاج ونوافــذ الشربيات وزخارف الفسيفساء مايبهرك حتى اليـوم . ونصل أخيرا الى « عين دار عائشة » وهي غرف صـغيرة تعلو احداها الاخرى ، حولها قاعة مربعة من خـلال نافذتها تبصر الوادى المنحدر وميدان البيازين والنهـر الجارى والجبل الاخضر .

وتملأ رئتيك من هواء نقى ينحدر صاعدا من السهول الخضراء يتسلق نوافذ القصر . ويصافح صدورنا . ونحن ندلف الى « حديقة البرتقال » الملحقة بدار عائشة ذات النافورة الباقية ثم برج ابى الحجاج الباسل ، وداخل البرج « مخدع الملكة » ومسكن زوجها الامبراطور الذى أعد لهما حينما دخلا غرناطة .. وتناولته يد التغيير ليلائم الذوق الغربى .

واخيرا .. تنتهى الجولة وقد كلت الاقدام وتقطعت الانفاس عند حمام القصر ذى الغرف الدافئة والساخنة واستراحة من سريرين من طوب مطلى بالالوان الجميلة وبينهما نافورة صغيرة حتى يستريح الأمراء من عنـاء الحمام الدافىء والساخن .. ويتناولون الحلوى والفواكه والشراب المعتق فى أقداح من ذهب وفضة والجـوارى والغلاميات يتخطرن حولهم فى أثواب من حرير ودمقس .. يعزفن لهم على الاوتار ويترنمن بأجمل الاشعار وينثرن الطيب والمسك على أجساد الامراء العارية وقد مـال الشرب برءوسهم وكأنهم خلوا من تبعات الحيـاة وأمنوا غدر الدهر وانطبق عليهم قول الشاعر :

تلقـــاه كالفحــل معبودا بمجلسه
له خــوار ولكن حشوه خـــور

وكيف يشعر من في كفه قدح
يحدو به ملهياه النــاي والوتر ؟!

***

وعدنا أدراجنا وقد أوغل الليل وأرهقنا طول الطواف وقد تأبطني أستاذنا الكبير يحيى حقي بيسراه متكأ على عصاه التاريخية بيمناه وهو يقول :

شابت ذاكرتك فخانتك عنك الابيات !

واطرقت صامتا وتذكرت أمسية اذاعية له منذ سنوات خلت يحكي شريط ذكرياته وينعى على الشعراء تعجلهم وعدم مكابداتهم وساق مثلا ساخرا حين كان يسمع حديثا لبعض الشعراء في الاذاعة يتحدث عن الشعر ويستشهد بأبيات منها هذا البيت الشهير لابن زريق :

رزقت ملكا ولم تحسن سياسته
من رزق ملك ولا يحسنه يخلعه

ونطقه المتحدث بفتح الياء لا بضمها فمسخ المعنى وكشف عن جهله وتمر الاعوام وهانحن في مهد صاحب هذا الشعر الرقيق .. فقلت له وهو يخطو فوق عتبات الدرج الاخيرة كشاب في العشرين : هاجر بيتك القديم الذي سقته مثلا من عينية ابن زريق اليتيمة الذي اشتهر بها ولا يعرف بسواها والتي يقول فيها :

لا تعذليه فان العـــذل يولعــه
قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه
جاوزت في لومــه حــدا أضر به
من حيث قدرت أن اللوم ينفعه
فاستعملي الرفق في تأنيبــه بدلا
من عذله .. فهو مضنى القلب موجعه

حتى وصل الى بيته الشهير « رزقت ملكا » وهـــو البيت الذي نهرت به ام الامير عبد الله ولدها المخلوع به وهو يبكي كالنساء بعد ان سلم مفاتيح غرناطة .

ولم ينقطع حبل الشعر طوال رفقة كاتبنا الكبير كان يتمثل بقول الشاعر فاذا به يطابق المعنى ويعبر عنه بايجاز واقتدار وكانه يعبر عن جانب الشاعر الخفى فيه وهـو الكاتب والروائى الذي وعى كثيرا من المأثور والمنتقى من التراث . يستشهد به في أحاديثه وخطبه .

وكان اجمل تشبيه قاله في ذكرى طه حسين العاشرة وهو يصف لقاءه بالعميد لاول مرة هذا البيت :

يغضى حيـــاء ويغضى من مهابته

فلا يـــكلم الا حين يبتســـــم

والبيت من الشواهد الاثيرة لدى جمهرة النقاد مما حسن لفظة وسهل معناه وصاحبه شاعر قليل الشـــهرة هو « الحزين الكنانى » قاله فى أبيات يمدح بهـا عبد الملك بن مروان .

وحين جمعتنا مائدة العشاء فى بيت سفيرنا المصرى « صلاح خليفة » فى العاصمة الاسبانية فوجئنا به ينحنى على يد يحيى حقى مقبلا بعد عناق طويل .

وحسبته عاشقا لفن كاتبنا الكبير عبر عنه بأدب الابناء فاذا به يعترف بانه تلميذه القديم أيام عمله فى السـلك الدبلوماسى .

ومنه تعلم الكثير وأهم ماتعلمه ويعتز به حتى الان هو حبه للغة العربية واجادتها ثم حبه للشعر وطــالت احاديث السمر حول هذا ..

وذكريات يحيى حقى فى العمل الدبلوماسى وقبلهـا

معاونا للادارة دون أن يخلو الحديث من ذكر المأثور من ابيات الشعر يرصع بها حديثه ويضيف اليه عطر الموسيقى وهو يتدفق ويتألق كأنه هديل الحمام الشجى او كأنه العصفور بلله القطر .. يرف بالجناحين مرفرفا نحو حديقة الثمانين !



السقوط الاخير

ويحكى أن عائشة الحرة صاحبت الدار المذكورة كانت ابية كريمة تزوجت بالسلطان الغالب بالله التى انجبت منه « أبو عبد الله » آخر ملوك بني الاحمر فى غرناطة . وعشق زوجها غادة اسبانية حسناء « ايزابيلا » وقعت اسيرة فى قبضة جيوشه فأحبها واسلمت وسماها « كوكب الصباح » وهام بها والهته عن زوجه وبنيه وقصره وشعبه . وثار الدم فى عروق عائشة الحرة واستنفرت من حولها للانتقام وطال الصراع بينها وبين الامة الاثيرة وانتصرت عليها كوكب الصباح وأمر السلطان باعتقال زوجته الاولى ، فسجنت هى وولدها وطالبت كوكب الصباح مليكها العاشق بأن يقتل ولده حتى ترضى وهم الملك بذلك . لولا أن هربت عائشة بولدها مع حلفائها وجمعت جيشا من الفرسان وحاصروا السلطان الذى فر منهم واقتحموا القصر وجلس الامير أبو عبد الله على العرش .

وتوالت الاحداث تباعا واستمرت الحرب بين الامراء والطوائف ولجا الاسبان الى الحيلة والخداع ونصروا

الامير الجديد على عمه وطالبوه بالثمن وكان مفاتيح غرناطة وأبى الفتى الامير ذلك واشتعلت الحرب بينه وبين الاسبان وحاصروه حتى استسلم ودخل الامير وزوجته ايزابيلا غرناطة وتسلموا مفتاحها وسجلت اللوحات تلك اللحظة والامير المهزوم يزحف أمامهم بالمفتاح !

***

وخرج أبو عبد الله أو « بيدو أباديل » كما كان يسميه الاسبان يجر أذيال الهزيمة والعار دامع العين موجع القلب يزفر زفرة اخيرة عند صخرة الجبل التى سميت فيما بعد « بزفرة آلعربى » وصارت مزارا سياحيا خرج يبكى وينتحب كالنساء وتنظر اليه أمه عائشة الحرة تنهره وتعنفه على ملك اضاعه ثم يبكيه كالنساء قائلة له : « أجل فلتبكك مثل النساء ملكا لم تستطع أن تدافع عنه مثل الرجال » :

ابكِ مثــل النساء ملكا مضاعا

لم تحافظ عليــه مثــل الرجال

رقصة الحزن والغضب
في بحور الشعر واللهب

طويت أوراق الرحلة الربيعية بعد أن مرت أيامها كالحلم المرتد الى اعماق القرون والاقبية .. يجوس عبر الردهات الذهبية ثم يهوى كالنجم فجأة محترقا .. يتدثر برماد الارض والذكريات ..!

واذا كانت البلاد السعيدة هي البلاد التي بلا تاريخ .. فان البلاد الشقية هي البلاد ذات التاريخ العريق !.

واي شقاء وحسرة للجذور العربية الواغلة في العروق وهي . تنبت الشوك والحسك والمنون بعد ان كانت تزهر الورد والفاكهة والزيتون !.

نات الطلول فتلفت القلب ولاحت المآذن المدببة تمزق ضلوع السحب المسافرة وكأنها تمزق صدر عدو قلب اهليها .. وأسراب الغمام عالقة بأعاليها .. كما لو كانت رايات من اللهب حبلى بعصير الزعتر وانقضاض اللحى والعمائم وسأم النراجيل !.

لا غالبا الا هـــو الله
سبحانه لا رب الاه
في كل ركن رحت القاه
أعطى وكان لغيرنا الغلب
فاشرب على الذكـــرى
في ساحة الحمـرا ..
اطلال من أســـرى
تبكي مهل يبكي لها العرب

عاد بنا القطار مرة أخرى الى العاصمة لنقضى بهـــا الليلة الاخيرة قبل الرحيل .. ونتسكع فى أسواق المدينة و « قهوة الفنانين الشهيرة » التى اكتظت بأنماط الفنانين والعازفين والشواذ ..

الى أن حط بنا الرحال فى حى « كورال العرب » فى مدريد القديمة .

قطعة حية من المجد العربى القديم .. فوانيس الشوارع وقد ترنح شعاعها يسكب الضوء للعـــابرين من طول ماتصاعدت حوله أبخرة الاشربة المعتقة .. وكأنها سكرت من طول ما سهرت فى حى الانخاب والموسيقى والرقص .

الابواب الخشبية المطعمة بالوان النقش والخـــزف والصدف الانيق والاقبية التى تقودك الى القاع حيث خشبة المسرح والمناضد المفروشة الدوارق المصـــفوفة وضباب الدخان المختلط بانفاس السكارى .. وأصـــداء الموسيقى الصاخبة ودقات الكعوب العنيفة وطرقعـــات الصاجات الخشبية وهديل القيائر الحزينة .

والراقصة الغجرية تغنى أغنيات الحزن واللهب ... وتحكى الاغنية عن رجل هدد أرضه الا يسقيها أو يرعاها .. فلم تهتم ثم عاد مرة ثانية وهددها الا يحرثها ويرمى فى تربتها البذور فلم تعبأ ..

وفى المرة الاخيرة هددها .. انه سيهجرها ويسافر بعيدا عن احضانها بلا عودة .

وتصرخ الارض « الام » وتبكى وتنتحب .. وتجثو على اقدام ولدها تمسك به لترده الى احضانها كيلا يرحـــل عنها .. حتى لا يموت بعيدا عن تراب الوطن .!

« والفلامنكو » .. لغة من خلال لغة .. ولوحة شعرية لرسام مجهول لغة عالمية القاموس والمفردات يحفظونها عن ظهر قلب .. وتحكى عن الفرح الغارق فى أنهار الحزن وتغنى الالم المشوب بالعنف الجميل .. ويعلو خفق قلوب الغجريات الراقصات يعكس نبرات الحزن على الوجوه ..

قلوب مشدودة الى أحباء وعشاق من ابناء العشيرة وحدها .. ولا تفتح نوافذها لغريب لانه لن يستطيع أن يملأ هذا القلب أو يشغفه حبا .. لان القلب ملآن لحافته مثل زجاجة خمر معتقة مختومة بخاتم الابد .. القوها على صفحة الامواج تتقاذفها دون أن تغوص فى الاعماق أو يفتض بكارتها أحد !

تشتد الرقصة رويدا رويدا ـ وتتشكل الاصابع كأنها أوتار مشدودة لكف عاشق ويختلج البدن وتشرأب العروق حتى تكاد تتفجر بالدم .

ويحلق الصوت الجميل يعلو ويسمو ينتحب ويحن ويقسو ويجفو ويتوسل ويكاد يجهش بالبكاء دون دموع .

ويتلوى الجسد كشجرة نحيلة سامقة عرفت العشق فتسلقت الجدران والاركان ويتهجد كأنه يؤدى صلاة الوجد والوصول ـ ويتهدل الشعر الاسود بعد ان انفرط من ضفائره ـ كأنه الليل هبط فجاة وارخى سدوله فوق الارض وينوء بحمله الهواء المثقل بانفاس السهارى :

وتحسر الراقصة عن ساقيها وكأنها « بلقيس » تمشى على الماء .. ويمر لالاء شعاع وردى من النور المختبىء داخل كنوز الجسد .. وترفع أطراف الثوب ذى الطيات المتراكمة وكأنها ترفع ستائر الغرف المخملية عن ضوء الشمس الوليد .

ويرتفع نشيج الموسيقى ويتسلق صـــوت الغجرية الجدران حتى يكاد يخترق سقف المكان .. وهى لتخطر بضة غير متجردة تتدفق حرارة ودفئا .. وقد توهـج الوهج الكلاسى تحت مصابيح العقيق .

انف اشم مستقيم دقيق وشفتان ممتلئتان كشـقائق النعمان كانهما نافذتان مغلقتان لا تبوحان بما فى الاعماق .

وفم كالاقحوان كأنه القرنفلة المبتلة برحيق القبـلات وجيد مطوق بأطواق الفل والريحان .. وبشرة شـاحبة شحوب اللؤلؤ الذى لم يعد مكنونا وجسد ممشـوق كالرمح الذى لان وتشكل فانثنى أو كالغصن الذى لوحته الشمس فانحنى ومال على ليونة وانسكاب يكاد يعقـد بالكف والانامل .

« والتنورة الاندلسية » .. على رأس الراقصـة وهي تميس سرقت زهر الاندلس وعطرها .. صوت الجيتار الشجي ينبعث من اعماق البحار والغابات .. الظـلال تغمر المكان وعناقيد الشموع شاخبة تشهق باللهب الاخير وبقعة من الضوء المتحرك تغمر جسد المراة ذات الثـوب والتنورة المعقودة مثل تاج اميرة أو مثل « قصة عائشة بنت طلحة » الشهيرة وقد عقصت طرتها من فوق وشاح مغطى .

انها رقصة الفلامنكو الشهيرة موال الغجر الحزين .. يتوارثه الابناء الجولون هنا وهناك .. ولد مابين قرطبة وملقة ورحل به الغجر ثلاثة قرون من الاضطهاد والتشرد لا يملون من غناء موالهم الراقص الحزين وكأنه نشيدهم القومي .. يجتمعون حوله فى لحظات الغربة والسفن .

التفت الساق بالساق وكانهما شلالان من ضـــوء

مرمري .. تشكلّ بذوره لطـــولَ الدوران والالتفـــاف كالزنابق البيضاء . حيث تدور الراقصة وتدور وتدق الارض وتقبل وتدبر وتنثنى وتتلوى وتلتاع وتتصدى .. ويدور معها صوتها المحلق فى بحته الاليفة الموحية .

ويتابع الجميع وقد رف على الرءوس طائر الصمت .. يحملقون ويسابقون الايقاعات الراقصة بعيونهم قبل آذانهم .. وكأنهم فى لحظـــة عرس مقدس صائحـــين هاتفين :

« اولى .. او .. لى .. اى الله .. الله » .

وتتوحد ظلال الليلة الاندلسية الاخيرة فى الرقصـــة الفجرية التى لا تنتهى .. ويمتزج دم العنب النبيذى بنفح الطيب الاندلسى .. ويتراقص شعاع الفراشات على الوجوه ويختلط الحلم بالطفولة والشوق بالنغم واللحن بالقلم والشعر بالرقص والبكاء .

وكان الراقصة .. تلو الراقصة تروض معنى مجهولا او جوادا حرونا .. وكأنها تحتلب ضرعا امتلأت فأرنت حين لمستها الكف الحالبة رنين الوجع والعطاء .. وتذكرت قول امرىء القيس يصف هذه الناقة وقد امتلأ ضرعها وقام حالبها فما تطيق لأصابعه لمسا .. فتصـــدر ذلك الرنين المكتوم وسط الحس الغافى بعد :

اذا ما قام حالبهـــا ارنت
كان الحى صبحهم نعى !

***

ويتارجح القرط المستدير الكبير .. وتتدلى العناقيد من بساتين الكرز .. وتنسدل الاهداب السوداء كأنهـــا مظلة الجداد تحمى الوجه الحزين من دموع المطر .. وقد

اشتعلت بشعلة الرعد وبرقت ببريق مجهول ينتظر مالا يجيء ! .

« الفلامنكو » لوحة تحمل في طياتها نفسية الاسباني الفريدة الالوان وما يحمله من دم عربي مازال عالقا بالعروق وتعكس الصراع والمعاناة وفروسية الحب والكراهية والاخذ والعطاء كل ما عاناه الاسباني هو وبلاده العريقة .

وصوت راقصة الفلامنكو عصارة من اباريق الشرق وأباريق دنانه المعتقات .. وبحته الاليفة المترعة بخمر الليالي .

لوحة من لغة مجهولة .. والوان لا نهائية صامتة ولكنها تحول الصمت الى ايقاع وتتابع الراقصات ولا ينتهي الرقص والغناء .. ويتفصد الجسد عرقا كأنه كرمة أعناب تعتصرها ريح الصبا فتعطي رحيقها في موسم الحصاد الربيعي .

« آه من الحب ..

الذى ذهب ولم يعد !

آه من الحب الذى طارت به الريح » .

هكذا تنطلق الاصوات بالغناء العميق تنشد قصيدة « لوركا » صديق الشعب الغجري والذى صور حياته الدامية في ديوان شعري كامل .. وتحكي قصيدة «الاوتار الستة » وهي أوتار القيثارة التي تبدو على سواد فجوتها المجوفة كعنكبوت تنسج نجمة ضخمة لتصيد الزفرات الطافية على خشبها الاسود .. ويتخيل لوركا أغنيات الغجر متشحة بالثياب السود رمزا للحزن العميق .

وتحكي قصيدة « اغنية الالم الاسود » مأساة امرأة

فجرية هى « سوليداد » تفقد حبيبها . وكأنهـا تعبر بكلماتها عن الالم الاسود الذى هو ألم الجنس الفجرى كله :

ـ « سوليداد .. اى الم اصابك ؟ .
انت تبكين بدموع كعصير الليمون .
وطعم الانتظار المر على شفتيك .
ـ نعم .. اى ألم فظيع يمزق نفسى ! .
انا اجرى من بيتى كأننى مجنونة . وضفائرى تنسحب على الارض .
من المطبخ الى الفراش ..
ويلى .. على ثيابى الحريرية
ويلى على فخذى الناصعى البياض
ـ سوليداد .. اغسلى جسدك بالماء الذى ينهل منه اليمام واتركى قلبك فى سلام .. ياسوليداد مونتويا .

ونصغى الى الاغنية التى تتردد فى جو الليلة السمراء .. من خلال آهات الاوتار الراجفة والحناجر الجريحة التى تحدثنا عن العيون والشفاه والحب والقدر وتسرى مع الليل كالحمامة الطائرة .. تحمل فى جناحيها الحقيقة الجميلة وترفرف فى عالم الحب الذى طارت به الريح .

ماسر هذا الحزن الدفين الذى يملأ كهوف راقصات الفلامنكو وقلوبهن الوالهة ؟.

يقولون ان الكلمة نداء قديم . نابع من جراح المطاردة وعذاب المنافى من مكان الى مكان .

صيحة الم واستغاثة فى جحيم المعارك الوحشية تطلب الرحمة . حيث كان الغجر يصيحون خائفين وقد داهمهم الغزاة ـ كما ترى بعض الاقوال :

« فلاح منكم . فلاح منكم فلا تقتلونا »

وبقيت الكلمة على الافواه وحولتها اللكنة الاسبانية الى « الفلامنكو » .

وبقدر ماسعدت بمشاهدة رقصة الفلامنكو بقدر مانفرت من مشاهدة مصارعة الثيران وبقدر مارجف قلبى وكلاهما طرفان فى الشخصية الاسبانية .

الرقصة تعبر عن صراع الجسد حين يتوهج ويشتعل ويستحم فى بحار العرق .

والمصارعة رقصة دموية تعبر عن فروسية الرجل ووسامته وقدراته على الاقتحام ورشق السيوف والسهام فى رقبة الثور الهائج بعد ان يتعاقب عليه مساعدوه ويتناولونه بالطعن والوخز حتى ينزف فيتلقاه الفارس البطل برايته الحمراء وقد اثخنته الجراح ، وما هى الا جولة واخرى ، ومحاولة غرس قرون الثور فى جسد قاتله فى وثبة أخيرة حتى يرشقه الفارس بالسهم الاخير فتسقط الضحية ويلوح البطل للجماهير التى تصرخ صرخات الاعجاب الوهيب !.

كلاهما صرخة فروسية وقتال لها طقوس وتقاليد ولكن فروسية الجسد مصحوبة بالرقص والغناء والشوق وفروسية قتل الثيران مصحوبة بالسيف والرمح والدماء . !

فروسية الجسد صلاة حب وعبادة واشتهاء ، وفروسية المصارعة رقصة عنف ومواجهة دموية حمراء !

***

أضواء الفجر تلتمس طريقا لها عبر زجاج النوافذ المعشقة الالوان . . والراقصة لا تهمد تنهى دورها فتنطلق

الاخرى لتبدأ جولة جديدة .. والراقص الفتى يلف ويدور ويغني ويدق الارض بحذائه المدبب اللامع ، يلاحق دقات « الكاستيلينا » الخشبية « صاجات الاندلس » من شجر القسطل لا من النحاس الشرقي ، والعيون السود بدات تغرورق بدموع غامضة ، وفتكات الطرف في أجفانها وسوادها تلمع كأنها السيف في الظلام :

فتكات طـرفك أم سـيوف أبيك
لا أنت راجمـة ولا أهـلوك
زعمـوا التكحل في عيونك حليـة
تالله ما بأكفهم كحلوك

هل كان الشاعر يقصد تلك العيون صاحبة الفتكات الغارقة في بحار الكحل والعنبر ؟؟!..

وترتعش الاهداب وتنسدل على الوجنات وكأنهـا ترتشف من رحيق التفاح او كأنها تطبق فجأة كالفخاخ على نظرات الطامعين الزاحفة في مجرى العبير من نهديها !.

شلال هادر من النغم والضراعات العطشى والنداءات المبهمة كانها الرمق الاخير وتختلط ايقاعات القيـثار بهتافات الحناجر ، وريشة عود « زرياب » تكاد تجود بانفاسها الواهية المحترقة واشتعل الوجد وماد القد ، وهتفت وانا اصفق على نغمات الرقصة :

« أولى .. أو .. لى .. الله .. الله . »

ويهدأ الضجيج وتلتفت الراقصة كمن لدغتها أفعى وتطاردك نظرات اللعنة ! جريمة لا تغتفر أن تصدر صوتا او حركة تقاطع طقوس رقصة الجسد وتحاصرك عيون الاستنكار تكاد تفتك بك وانظر حولي لأداري وجهي ولكن

الشعر جواز المرور وصك العبور فى متاهات هـــذه الليالى .

خف صديقى عاشق الاندلس الى جوقة العـــازفين والراقصين وتهامس معهم فاذا بالاستنكار يتحول الى تحية حب واذا بالانخاب ترتفع فى صحة الشعر والشـــعراء وتراق دوارق « السانجريا » مشروبهم الشهير من عصير العنب والليمون والتفاح ورحيق الازهار والفواكه نخب لوركا وماتشادو واونامونو وبابلونيرودا وابن زيدون .

ودوى المكان بتصفيق الاكف والاوتار والـــكموب ، واشتعلت الانفاس وماج المهرجان ودقت الاجراس تؤذن بالرحيل .

حزمت حقائبى وحملت ساقى ، وقطرات الطل تهمى من عيون النرجس النعسان من لوعـــة الرحيـــل حتى الاشجار ذات القوام النحيل كانت تعبق ببكاء النـــدى وبوح المواويل !

اليتيمـة .. وشلال الضوء الأسود !

سقطت شعرة سوداء من مفرق امرأة سمراء !
امرأة دعجاء نجلاء شهلاء .. كحيلة الجفون خمرية العيون
على ربوة من وجنتيها شامة شهباء هي « الخال » الذى تغنى به الشعراء وقيل فيه الموال .
وهى طابع الحسن .. الذى يتحدث عنه العشاق .
فرعاء هدباء وطفاء .. موطأة القد موردة الخد رابية النهدين والزند .
معقودة الصدرين على تاجين من ذهب ولجين فاح فى مجرى العبير منهما أريج سرى بالعطر الطروب فضمخ الأركان فماد المكان وشبت النيران فتمثلت بهـذا البيت من قصيدة « اليتيمة » المعروفة :

وبصـدرها حقـان خلتهمـا
كافورتين .. علاهمـا ند



واليتيمة قصيدة دالية راقصة الموسيقى من بحـر الكامل الذى سمى كاملا لتكامل موسيقاه وتفعيلاته .. نظمت فى وصف حسناء وفى ذكر محاسنها ولمارى عليها الشعراء قديما وادعاها كثرتهم الى أن غلب عليهـا اثنان

هما أبو الشيص والمكوك اليمنى الكندى .. وتماريا فيها الى أن صحت نسبتها الى « دوقلة المنبجى » الجاهلى باجماع النقاد والرواة .

ولقد وصفت اليتيمة باليتم لتفردها ولقصور صاحبها عن قول سواها اذ لم يعرف له فى الشعر غيرها من القصائد .

ولذلك قصة تروى ...

ذلك ان الاميرة الجميلة « دعد » وكانت شاعرة ساحرة للقلوب والالباب أقسمت ألا تتزوج الا شاعرا يتفوق عليها ويصفها من راسها الى قدميها بقصيدة تروى على مدى الاجيال .

ونظم « دوقلة المنبجى » من شعراء الجاهلية هذه القصيدة طمعا فى الظفر بقلب الاميرة الشاعرة الجميلة .

وحمل « دوقلة » قصيدته وسار من بلدته « تهامة » الى بلدة المحبوبة الحجازية « نجد » .

وفى الطريق صادفه شاعر نازح لنفس الغرض وهو الظفر بقلب الاميرة بقصيدة شعر نظمها فيها ونافس بها غيره من الشعراء .

وتحاور الشاعران .. وتجاورت أعناق المطى وهما يقطعان نفس الطريق الى الرحلة المشتركة ..

وانشد « دوقلة » قصيدته لرفيق السفر .. وما أن سمعها حتى أيقن انه ظافر بقلبها لا محالة ..

فاحتال عليه حتى قتله وسرق القصيدة ونسبها لنفسه وانشدها بين يدى « دعد » وطربت الشاعرة الاميرة للقصيدة حتى مالت .. وفجاة فطنت وكانت ذات فراسة وفطنة الى أن لهجة الشاعر السارق المحتال تختلف عن

لهجة صاحب القصيدة القتيل وهو من أهل « تهــامة »، ولها لهجتها وبهذا يعترف الشاعر المقتول بأنه من تهامة وانها من نجد موطن هواه :

ان تتهمى فتهـــامة بـــلدى
أو تنجـدى ان الهـوى نجد

وصاحت دعد : اقتلوا هذا الشاعر فانه قاتل بعلى .

واسروا الشاعر .. واستنطقوه فاعترف بفعلتـــه وقتلوه !

وعاشت القصيدة تروى عبر الاجيال وذاعت قصـــة الشاعر الشهيد المجهول . الذى قتله رفيق السفر غيلة ليظفر بقلب الاميرة الجميلة .

وبقيت قصيدة « اليتيمة » لدوقلة المنبجى الجاهلى حية نابضة عبر القرون لا يروى له سواها وتغنيه عـن ديوان كامل .

***

وتذكرت القصيدة طوال رفقة السفر مع المرأة السمراء ذات شلال الشعر الاسود .

ونثرت ابياتها عبر مســالك الدروب والمخـــاطبات والموقف وانا لا اخشى رفيقا يغتال القصيدة أو الشـــاعر الذى يقول :

لهفى على دعد وما خلقت
الا لحر تلهفى دعد
فالوجه مثل الصبح مبيض
والشعر مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسنا
والضد يظهر حسنه الضد

وتلفتت المرأة السمراء لفتة المها ولوت جيدها فشف عن لؤلؤ مسبوك وعنبر مسفوك يكاد ينسكب لفرط نصاعته وليانه ويمتد ويستطيل اذا مال الى أعلى ليقطف من شجر الاراك ! .

والجيد منهـا جيـد راتعـة
يعطو اذا ما طالـه المرد

ومشت لا يعيبها قصر ولا طول فقوامها قصد وحفيفها ورد كأنها عود بان تسعى به ساقان كسنت بواطنها ظواهرا نورا وخمرا من رخام مصقول ونبيذ معسول !

ومشت على قدمين حضـرتا
وألينتا فتـكامل القد ..

وتأودت بفتور عين وجسد .. فكاد خصرها يميل وينهد .. وكاد لرهافته ولينه بالكف يعقد :

وبخصرها هيف يزينـه
فاذا تنـوء يـكاد ينقـد

***

أطلت بنظرة من عل كأنها ملك متوج يمشي على الديباج والحرير ويسير على بساط المسك والزهور لينظـر في أمر رعاياه ويتحكم في شئون محبيه .

يجري في جسدها العارم دم عربي قادم من ينـابيع الشرق المعتق الافاويق المهشم الاباريق يتدفق نضـارة ويشتعل دفئا وحرارة ويفيض اقتحاما وجسارة .

لله أشـواقي اذا نزحـت
دار بنـا ونأى بـكم بعد !

وماست في كبرياء وتيه وهي تسوي بيد الفتنة خصلة

من شعرها الجعدى الفاحم الفروع والاصول .. وقد ارسلته خلفها فتدلى يرفل فوق جسدها كأنه وشــــاح الظلام يغطى نوافذ القوام ..

ويزين فوديها اذا حسرت
ضافى الغــدائر فاحم جعد

جيوكاندا عربية .. شرقية العيون والابتسامة رسمتها ريشة القرون المجهولة ..

أومأت لى . فأومأت لها ونادت فأطعت .. كأنى منجذب الى قوى خفية تتسلق جدائل شعرها وتنفذ من أهداب عينيها المسبلتين وكأنها غافية بعد .. أو أنها عاشقة نشوى لم تفق .. تنفث السحر فى الاخرين دون عمد منها أو ترصد :

وكأنها وســنى أذا نظــرت
أو مدنف لمــا يفــق بعــد !

كنت اراها كل يوم هنا وهناك .. وكلما يممت وجهى اراها وكأن الأرض تنشق عنها مثل جنيات البحر وعرائس الفردوس المفقود ..

نتلاقى من بعيد .. على نظرة عجلى أو لمحة مختلسة وكأن كلينا لايتعمد اصطياد عيون صاحبه أو يزاحمه فى عرض الطريق ..

كانت تحمل جهاز تسجيل صغير وقلما وورقات بيضاء وكتابا عن « القرطاجنى » نتراسل بالنظرة المخترقــة الصامتة النجوى تشدك اليها بحبال الصمت الطويل حتى اذا اختلجت النظرتان وانطبقت العينان ارخت الأهداب

وغلقت الابواب في عجل وخجل . فاغفو لحظة في جبال الكحل الراقد بالاجفان !

وما أن أفيق حتى ترميك وتلقى بك من قمم العيـون الى سفح الجفون . فتتدحرج تحت شواظ النظـرات وكأنك فلذة من كبد الجبل تنحدر من عاليه آلى واديه !

وسرعان ماتحول بصرها عنك وكأنها أزاحت عن كاهلها عبئا وتجول به وتصول على غير قصد هنا أو هناك .

بفتور عـين ما بهـا رمـد
وبهـا تداوى الاعـين الرمـد

هرعت الى جوارها وقد افسحت لى مكانا .. وجعلت بيننا الورقات البيض والقلم وكتابها الاثير .

ونظرت الى المقعد الخالى بيننا الا من الورقات والقلم .. وكان اولى أن يكتمل الجوار بلا حواجز وكأنها تريد أن تؤكد بعد المسافات بيننا رغم قرب النجوى والمشاهدة .. وقلت هامسا لها : سلى صاحبك « القرطاجنى » عن هذا البيت :

ليكن لديك لسـائل فرج
ان لم يـكن فليحسن الرد ..!

وابتسمت ابتسامة متجهمة ولاذت بالصمت عن لا أو نعم !

هبت نسمة ربيعية من خلال نافذة المبنى القديم الذى نحن فيه وسقطت شعرة سوداء من غابة الشعر الطويل الذى يكلل مفرق المراة السمراء . التقطت الشـعرة

السوداء وكانى التقط خيطا ضالا انفلت من شلال الضوء الاسود .

وكأنه وتر قيثارة حزينة ترتدى أوتارها ثياب السواد حدادا على لحن لم يتم !

تلوت الشعرة السوداء وتراقصت فوق الورقة البيضاء رقصة الافعى .. نحيلة عاشقة سامقة وامقة يكاد يجرحها حفيف الهواء السارى من النوافذ المشوشية التى تطل على الحديقة الفيحاء فى القاعة الكبرى للمعهد الاسبانى العتيق .. فى محاضرة ادبية يلقيها الدكتور « بدرو مارتينث » ـ المستشرق الشهير :

وبلا قصد أو عمد التقطت الشعرة فى سرعة خاطفة وحنوت عليها وكأنها شعاع قز غاضبا من قبضة الشمس ولاذ بالارض الحنون وطويت عليها صفحات كتاب معى ولفنا صمت حزين .

وانتفضت المراة السمراء مذعورة مقهورة كانما لدغتها ذات ناب او غافلها نشال محترف فى الظلام .. فسرق منها جوهرة التاج .

او فقدت عزيزا لديها او كأنى اطلعت منها على عورة او عرفت فيها سريرة وكشفت ماتود ستره ..

مدت يدها وكأنها تتقى سهما رشقت موطن العفة فيها لتسترد الشعرة السوداء !

اشتعلت اللحظة وتوهج الحنين ورعشت الكف المخضبة البنان تحت كفى الراعشة الانامل وهى تحتوى الشعرة وكأنها تقبض على كنز ثمين وشدت المراة السمراء يدها وكأن نارا مست كفها والمعصمين !

والمعصمان فما يرى لهما
من نعمة وبضاضة زندا
ولها بنان لو اردت له
عقدا بكفك أمكن العقد !

تحول الاقبال والود الى اغضاء وصد ..
وتحولت النظرة الغامضة الآمرة الى نظرة وحشية نافرة .. كأنها مخلب طائر كاسر يكاد ينشب الاظافر فيك وينقرك ..
وانقلبت الشفة الوامقة المكتنزة الى شفة جاحدة متحفزة .
وجمت الحسناء السمراء واشاحت بوجهها غضبى فامسى كل شيء واجما !
وجمت فامسى كل شيء واجما
الليل والاصباح والديجور
ما الذى حدث واية جناية ارتكبت ؟
وهي الحدث والجناية والقصيدة والرواية ترمى بجدائل شعرها في طريقي فاعشي ولا ابصر المصير !
وتنشر ضفائرها حولى .. وكأنها فخاخ تطبق على قدمى وتدمى جناحى كالطير الاسير .. فأتعثر واضل المسير ! ..
اي جرم وأثم فعلت وهي التى ترسل شواظ النار من عيونها النجلاء كل يوم في دروب الشعراء والغرباء !
انقطع بيننا حبل الكلام ورف طائر الخصام.. واغتسلت جدائلها السود بامواج العرق التى سالت على النحر والصدر ورف قول الشاعر :

وانا أناس لا توسـط بيننـا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر

كنا قد اتفقنا على أن نصعد الجبل بعربتها عبر الطريق البرى الى الجنوب الاندلسى ..
وحين التقينا هنا أو هناك .. وجمعنا طريق واحد توقفت غضبى وكأننى ازاحمها الطريق او انازعها المكان ليختار كل منا طريقا غير طريق صاحبه وان جمعتنا اسباب الوصول .
وحين ضمتنا موائد العشاء فى المطعم الانيق ..
اشاحت كاشرة كاسدة الغابة الموتورة الحمقاء ..
وانتحت مكانا قصيا ونذرت الا تكلم عشيتها انسيا :
ان لم يكن وصل لديك لنا
يشفى الصبابة فليكن وعد

***

واشرق الصباح وكفت شهر زاد عن القول المباح ..
وخرجت أجوس فى الطرقات وامشى فى الاسواق تحت رذاذ المطر الدءوب .
وانتصبت أمامى .. كالسيف فى الظلام .
اقبلت وادبرت مثل انثى قد تصدت للذكر
تمشى فى خيلاء وحياء ويمنعها من الاعتذار الكبرياء
تحتال على بدء المحاورة زاعمة انها تضمر الود بعد أرق وسهد .. وتشى عيناها بمعنى الكلمات الدفين دون أن تبوح :

وزعمت أنك تضــــمرين لنا
ودا فهلا ينفــع الـــود ؟

***

حسبتها تريد أن تسترد ماالتقطته من خمائل شعرها المسكى الاثيل فأخرجت الشعرة السجينة من طيــات المنديل ونفخت فيها نفخ المزامير فطارت على قارعــة الطريق ليغرقها المطر وتحملها الريح الى جبل يعصمها من الطوفان .

تسمرت وتلفتت وطارت نظرتها خلف الرياح وتناثرت جدائلها فى مروج الصباح وكأنها ثكلى ترسل النواح على وليد اختطفته الاشباح !

***

كف المطر عن الانهمار وطوق الوجود لحظة انكسار ..

وغرقت اللحظة فى بحر الاسى والدوار ..

وهمست لى وهى تغض البصر تطلب كتابا بعينه ..

واعطيتها الكتاب وقلبت صفحاته الاولى فلم تجد كلمـة اهداء ..

وصرفت النظر الى بعيد وكأننى أطارد الشعرة السوداء التى حملتها الريح الى جبل يعصمها من الطوفان !

وإذا المحب شــكا الصـــدود ولم
يعطف عليـــه فقتـله عمـــــد !

***

قالت لى السمراء الاخرى تعلق على ماحدث :

هذه بضاعتكم ردت اليكم ..

شرقية غربية من لحمكم ودمكم ..

فمن الشرق ومنكم انحدرت فى أصلابنا نطفة الشوق والالق .

ورثنا عنكم الخوف من الحسد والقلق ومن شر ماخلق .. وصنع الاحجبة والتمائم حتى تتوله المرأة فى حب الرجل وتذوق الويل ولا تنام الليل وتطارده أينما كان كانها الجارية تتعلق بأذيال ثوب سيدها الرجل .

ربما اشتعل قلبها وجدا .. فلما فعلت فعلتك أصابها الخوف والهلع وظنت انك جاعل من الشعرة تميمة أو حجابا سحريا تسحرها به وتجرها خلفك أينما ذهبت حتى تفرقها فى نهر النيل !

وقديما كان فى الناس الحسد وانتم أهل السحر والشعر :

ليت هندا أنجزتنا ما تعد
وشفت انفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة
انما العاجز من لا يستبد !
حسد حملنه من أجلها
وقديما كان فى الناس الحسد



قلت لنفسى : أية تمائم واحجبة وأى تعاويذ وسحر وحسد ؟

وهل يقوى السحر والساحر على ارغام الحرائر ان تعشق وتحب ؟

وهل تقدر التعاويذ والطلاسم أن تجبر الارواح على العشق والهوى .

وما قول صاحبتي في قول امرىء القيس حين طرق حبيبته بليل وفي حضنها وليدها الذي علقت في عنقه التمائم والاحجبة بعد أن أتم حولا من عمره .. فلم ترده التمائم عن غايته ولم تؤرق الاحجبة ضمير ام الوليد فاعطت لكل منهما شقا :

فمثلك انثى قد طرقت ومرضع
فألهيتها عن ذى تمائم محول
اذا ما بكى من خلفها انصرفت له
بشق وشقى تحتها لم يحول !

الهبوط فوق أرض النسور

قمر الغريب هنا غريب فاشرب على ذكر الحبيب نعم نقد أشرق القمر من وراء السحاب غريبا مثلي .. ينفض عن جسده الفضي بقايا المطر المنهمر طوال ثلاثة أيام .. ودق القمر باب الشرفة ففتحت له وتسلل بأشعته الفضية الى الغرفة وقد رحلت موجة البرد العابرة ولاحت في ضوئه أشجار السرو والحور الفاخرة . خضراء تستحم بدورها في ضوء القمر .

واحتفلت بمولد القمر الغريب وشربنا معا نخب الغربة والشعر ولاح الصباح وأشرقت عين السماء صافية لامعة بعد أن غابت طويلا مع شقيقها القمر لتبعث الدفء والحرارة في سماء روما العتيقة ..

وبدا حي « الناموتنانا » الهادىء الانيق مشرق الملامح تحف به الحدائق والخضرة وزهور « التيوليب » على نواصي الشارع وحزمت حقائبي وحملني صديقي «كاظم» في عربته الى المطار في الظهيرة .. لتحملني الطائرة من روما الى أرض النسور .

كان موعد الطائرة في الرابعة والنصف ولم تقلع الا بعد ساعة ! ولاحت الطائرة الرومانية أشبه بعربات البريد القديمة ضيقة سقيمة وعلي سلمها طال وقوفنا ساعة أخرى .. بين التفتيش الدقيق وفحص الاوراق ..

واكفهر الجو فجأة بعد أن اكفهرت وجوهنا من التأخير وتعقيد الاجراءات والتدقيق والتفتيش وبدلا من أن تقطع الطائرة المسافة في ساعة تقريبا من روما الى « تيرانا » قطعتها في أكثر من ساعتين لرداءة الجو وانتشـــار الضباب ونحن نمسك قلوبنا في عربة البريد الهوائيـة وهبطنا وقد غمر الليل وجه الارض ـ ولاحت أضــواء « دايتى » جبل تيرانا الشهير تخفق من بعيد فـــوق أرض النسور التى جعلت من الجبل أوكارها وهى تنقض على الغزاة !

وفى المطار كان حشد من الادباء والفنانين فى الانتظار وكان الفن لغة لا تحتاج الى ترجمان كان دفء الاستقبال والحفاوة لا يحتاج الى لغة وقد اختلطت اللغات . . الايطالية واليونانية والتركية والفرنسية والدانيمركية والالبانية . .

واختلطت اللهجات والتحيات على أنخاب « الراكى » معبودهم المعتق وانطلق الموكب الى فندق « دايتى » الشهير لنلقى المزيد من الحفاوة والتكريم وقد بدت « تيرانا » بجبلها الاخضر واشجارها التى تملأ الشوارع فى حلة من الضوء ولافتات الترحيب استعداداً للكونجرس الادبى الثالث .

فى الصباح الباكر انتزعنى عدوى اللدود من الفراش .. تسلل الصقيع من أعلى الجبل لينفـــذ من جدران الغرفة الواسعة ويتسلل الى العظام .. ونزلت التمس الدفء تحت رذاذ المطر فى الشوارع الواسعة الهـــادئة وقد هب أهلوها مبكرين للعمل الجاد .. المتحف الكبير .. الحديث المعمار الذى يضم صوراً من تراث البـانيا وقصص بطولات شعبها فى حروبه ضد الغزاة التى توالت

عليه من كل فج وحملتنى العربة فى جولة حول المدينة وصعدنا أعلى الجبل .. الذى تحولت صخوره الى حدائق من الخضرة والزهور .. وتحولت ينابيع المياه فيه الى مياه معدنية نادرة وتساءلت فيم يفكر الجبل الصامت الذى ترتمى المدينة بين أحضان قدميه وكأنها طفلته التى يحتويها من علياه ويمدها بالخير والنماء .

وقالت لى « ديانا » مرافقتى الحسناء : لقد طرح قبلك شاعرنا الكبير « كاداراه » مثل هذا السؤال فى قصيدته التى يقول فيها :

بم تفكر هذه الجبال الشامخه ؟
عندما تغيب الشمس وراء السفح
يتسلق مغامر عند الغسق
حيث تلقى بندقيته ظلا مديدا
على أرض الوطن ..

وفى قمة الجبل الاخضر .. امتدت المقابر الرخامية بين الزهور الحمراء والسوداء والبرتقالية .. مقابر الشهداء الذين صدوا الغزاة .. وكأنها تطل بدورها على الارض التي بذلت من أجلها الدماء وقد غمرت اشعة الغروب قمة الجبل فارتعش القلب فى حضرة الخلود .

افتتاح الكونجرس

خرجت المدينة كلها منذ الصباح الباكر فى مسيرة زاهية الالوان من الادباء والشباب والطلائع ..

الملابس الزاهية الوطنية والرقصات الشعبية للفاتنات من بنات الريف والمدينة والالات الموسيقية العنيفة والاناشيد الحماسية والاعلام والبيارق الملونة .. ويجوب الموكب شوارع المدينة حتى الميدان الكبير الذى يبدو كلوحة

ملونة ، وقد انتصب فيه تمثال « اسكندر بك » فوق حصانه عملاقا رهيبا مثل أبطال الاساطير ، واستقبلنا « أوجولى » رئيس اتحاد الفنانين وكبار رجال الدولة والادباء والشعراء .. وانتقلت الاذاعـــة والتليفـزيون والصحافة لتسجيل لحظة اللقاء الادبى .. ولقـد كان احتفاء الاذاعة والتليفزيون اليومى بهذا المؤتمر الادبى دليلا على الحفاوة بالادب والفن حيث أذاعت أيام المؤتمر على الهواء مباشرة وعقب كل نشرة أخبار يومية ..

وافتتح المؤتمر .. قاعة المبنى فى ساحة دار الاوبرا مكتملة العدد ، وحضر رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والحزب الانفتاح .. والقى « دريتورو أوجولى » كلمة طويلة عن الادب والفن والروابط الثقافية والانجـــازات الهامة فى هذه المجالات وخطط المستقبل الادبية .

وتعاقب الادباء والفنانون من أعضاء اتحاد الفنـــانين وممثلى بلاد الجمهورية الخمسة .. واتحاد الفنـــانين يضم الكتاب والشعراء والصحفيين وأهل الســـينما والموسيقى والمسرح والفنون الشعبية وعلى مدى أربعـة أيام صباحا ومساء توالت جلسات المؤتمر تحدثت فيـه الوفود عن مشكلات الفن والادب وسبل تقوية الروابط الثقافية بين الشعوب وهموم الفن العالمية والمحلية .. كانت الكلمات تلقى بلغات أصحابها ثم تترجم الى اللغـة الالبانية .

وكان المؤتمر ينتهى فى الثامنة مساء كل يوم لنبـدأ جولة أخرى ليلة فى الاوبرا لمشاهدة « لاترفياتا » رائعة فردى من فرقة الاوبرا الالبانية وليلة مع اوركسترا الموسيقى بقيادة فنانهم الشاب « فهيمى » وليلة مع فرقة الباليـه

والفنون الشعبية الرائعة .. ولا ينتهي الليل .. وانما تلتقي في ندوات هامشية في الفندق الكبير .. مرة على مائدة « أوجولي » وأخرى على مائدة « كاداراه » ونخبة من الفنانين والشعراء ..

فاتيما كازولي .. أستاذة الأدب الروسي الذكية الرقيقة التي لا تكف عن الحركة والتنظيم كأنها الفراشة ترفرف بين الزهور ..

« ناتاشا لاكو » الشاعرة و « ديانا سيلي » عضوا اتحاد الفنانين « وجواهر سياهيو » الشاعر الشاب المحلق كالنسور لم يفقد ملامح الريف والجبل .

« نيقولا » صاحب جريدة « الكاستلا » ومعناها الفرقلة .. التي تلهب الظهور النقدية الفكاهية « ماتشو »الصحفي العجوز الرقيق « وفاتميرى » شاعر الاناشيد الحماسية وضحكات « جمال بيرم » الطفولية شاعر تركيا ورفيقه المتجهم تحسين سراج .

ابتسامة أوجولي ووقار وبساطة كاداراه .. كلاهما عالمي .. ترجمت أعمالهما الى عدة لغات حكايات الأديب السوري « عبد اللطيف الارناؤوط » لهجته الشامية وروحه العربية المتألقة .. انشغال مرافقي البرونسير المترهل العجوز في الاكل والشراب .

« ماريانا لارش » الشاعرة الدانيماركية نحيلة كعود القمح ورقيقة كزهرة .

لازار ووهبي فالا الشاعران الوقوران ولقاء حميم مع السفير الشاب الجديد في القاهرة « أليكس سرجة » حضر ليحيي مصر قبل أن يطير اليها ويدعونا الى الغداء .

وتمتد الندوات والدعوات حتى منتصف الليل ..

وتطلع صحف الصباح لتفرد للمؤتمر وادبائه الاخبار وتترجم الكلمات والاشعار حتى رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء .. استقبلا الضيوف الادباء وكانت حفاوتهم بمصر أكثر الحفاوات . قال لى الرئيس :

« لقد بذلتم العرق والدم لتبنوا الاهرامات .. أما نحن فقد حبتنا الطبيعة الجبل دون عناء ! »

وقلت للرئيس : « لو أن الطبيعة حبتنا جبلا مثلكم بلا عناء لبنينا الاهرام فى كل الحالات » .

وتميزت اللغة العربية دون سائر اللغات بايقاع خاص شد الاسماع وران الصمت الرهيب لتدفق موسيقى الكلمات دون فهم لمعناها قبل ترجمتها .. وكانت الكلمات المصرية تقول :

* أيها الصفوة من كتاب وفنانى العالم :

فى البدء كانت الكلمة وبها أنفتحت مغاليق الكنوز للانسان وبها امتدت الجسور بينه وبين أخيه الانسان فى كل مكان ..

ولولا الكلمة لما طار بى جواد الشعر الاصيل يدق بسنابكه هامات الحب والنجوم وتركض عبر البحار الشاسعة ليلتقى بكم هنا ..

واذا كان الانسان وهو يشق طريقه من قبل وسط الاحراش وظلام الكهوف قد اكتشف الحضارة عندما نطق بالكلمة فلماذا فقد الانسان المعاصر بعد هذا الشوط الطويل على طريق الحضارة والمعرفة جسارة الكلمة وعنفوانها ؟

أن تعقد الحياة وتشابك الحضارات وطغيان قوى الشر البشرية وسيطرة اجهزة الاعلام المسمومة ولافتات السينما والنيون الحديثة جذبت انسان هذه العصر الى هوة

الضحالة فآثر السهو واليسر على المعاناة والمكابدة واكتفى بثقافة الشطائر السريعة دون التجوال فى الدروب العميقة بحثا عن الاجمل والاكمل فتوارت الكلمة البناءة خلف الجدران الحديدية وكتب الشاعر بدماء القلب بدلا من مداد المحبرة .. فمن يصغي لصوت الشاعر الان والشعراء هم أصدقاء الشمس القدامى وورثة الطبيعة وأطفال الله الغرباء وأحفاد التاريخ لان شعرهم لغة الموسيقى التى لا تحتاج الى ترجمان وهم لا يتلقون الوحي من السماء وانما يضنعونه بأنفسهم كما يقول « ايلوار » : « ان الشاعر العظيم هو الذى يصنع بنفسه الالهام ولا يدع الالهام يصنعه » .

هذا الشاعر كيف يغنى ويشدو للحياه والانسان ورذاذ الدماء يملأ المكان والزمان واشلاء أخيه الانسان تتناثر عبر الارض وتلوث لون الخضرة وعطر الزهور .. وهتاف طبول الصراع والدمار تحجب ايقاع القافية . ! ان الدمار الفكرى الذى يتعرض له أبناء جيلنا أشد خطرا من الدمار الدموى الذى يحيق بالشعوب .

لذلك قبل أن تطالبوا الشعراء بالغناء يجب أن ترتفع الاصوات لايقاف الدمار الفكرى والنزيف الدموى الذى يشوه الان عيون الاطفال ويقتل روح البساطة فى نفوس البسطاء » .

جبل اسكندر بك وشاطىء الأدرياتيك

انقلب الجو مرة أخرى وتساقطت الامطار وانحدرت الرياح الباردة من أعالى الجبال .. ولم يتوقف نشاط المؤتمر ولا رحلات الادباء عبر الجبال والسفوح والبحيرات وتحت رذاذ المطر ــ صعدنا الى قمة الجبل الرهيب على

بعد عشرات الاميال من العاصمة « جبل اسكندر بك »
حيث القلعة العتيقة الشامخة التى تضم متحفا يسجل
صور النضال والطموح ..

وحيث وقف أهل هذه القرية الجبلية من الفلاحين يصدون غارات الترك الضارية بالحجارة وبصخور الجبل تحت قيادة زعيمهم الاسطورى « اسكندريك » وهزمت سواعد الفلاحين النحيلة وحجارة الجبل الصماء .. رماح وسيوف الغزاة الاتراك .. واصبحت القلعة متحفا .. قرية « كدويا » كعبة للسائحين .

وهناك على شاطىء الادرياتيك .. كانت جولة اخرى .. عبر اجمل الشواطىء الهادئة الساحرة فى مدينة « ديوريس » السياحية حيث الهدوء الشامل .. والفنادق الجميلة ..

وانتهت الجولة فى ارض النسور وانتهى الكونجرس الادبى الثالث .. وخرج موكب الشعراء فى الصباح الباكر فى وداعنا يحملون البسمات والهدايا والحلوى — وانطلق الموكب بنا فى صحبتهم حتى المطار .. وانهمر رذاذ المطر وكأنه يريق دمعه معنا فى لحظة الفراق ..

ومرت الايام الثمانية كأنها اللمح فى البصر ..

وحملتنى الطائرة مرة أخرى .. الى عروس الدانوب « بودابست » ومهد « بيتوفى » شاعر العشق والحرية لابدأ جولة اخرى ..

عشق وحرية على ضفاف الدانوب

« أيها الشعر المقدس لكم حطوا من شأنك !

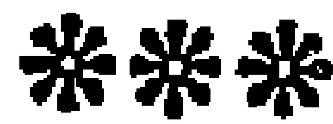
هل تحسبون ان الشعر عربة تتخيرون لها الفجاج المسلوكة والدروب الممهدة .

الشعر عقاب يطير حرا فى أجواء لم يتخطها أحد بعد !

ايها الراغب ان تكتب :

تناول القلم اذا أنست فى نفسكَ القوة ثم تقدم الى حيث لم يسبقك أحد ..

والا فخذ محراثا أو قالب اسكاف والق من يدكَ عودك الحقير ! »



تداعت الكلمات أمام عينى كأنها اسراب الحروف المهاجرة فى كتب الاشعار المسافرة .. أقرؤها على جبين الفضاء الرحب فى اناشيد الشعراء الذين حلقوا عابرين السماء كاللمح فى البصر بعد أن ملأوا الارض شدوا وغناء .

وتتألق الكلمات فى دفاتر السحب البيضاء الراكضة مذعورة كالطيور العابرة امام طائر الصلب الحديدى ذى الاجنحة الجمادية وكأنه زائر غريب يشق الفضاء بأزيزه الهادر ويمتطى صهوة الريح مخترقا احشاء السحب هابطا فوق الارض ..

وذكرت ماقاله شاعر الطيارة « فوزى المعلوف » وهو يصف هذا الكائن الغريب والطيور تفر مذعورة أمامه في ملحمته بساط الريح :

هى طير من الجماد كأن
الجن في صدرها تحث خيولا
جمحمت تضرب الرياح بنعليها
فشقت الى السماء سبيلا
ثم مدت ألى النجوم جناحين
وجرت على السحاب ذيولا !

وانحدر الطائر الحديدى الغريب يسابق الصوت وهو يهبط رويدا رويدا فوق ارض بلاده ..

بلاد شاعر طفولى رحل في الربيع في عامه السادس والعشرين بعد أن داسته سنابل الخيل وعجلات المدافع .

وهو فاقد الحراك مسلوب الارادة ..

وقد حملوا رفاقه وسط الموسيقى تحت الرايات السود وسقط شهيدا بلا قبر ولا وطن .

وقالوا : سيعود مع الربيع عندما تهدأ العاصفة وتورق الاشجار وتشتعل نيران المدافىء .

وعاد الشاعر الطفولى مع الربيع .. واوراق الشجر ورماد المدفأة .

ولكن في تمثاله الشامخ الحى الذى يطل على شاطىء الدانوب في عاصمة بلاده بودابست .

ومن قبل .. منذ عشرة أعوام وقف العالم كله لا في المجر وطنه فحسب بل في انجلترا وفرنسا وأمريكا

اللاتينية وآسيا وافريقيا حيث احتفلت شعوب هـذه البلاد جميعا بعيد ميلاده المائة والخمسين .. فأقيمت الندوات وعزفت الالحان والموسيقى وعرضت الافـلام والمسرحيات ورتلت أشعاره قصيدته « ياتوش البطل » وصدر طابع بريد تذكارى وصكت بعض العملات الذهبية الفضية باسمه ورسمه .. وتمثال بالحجم الطبيعى .. ومهرجان كبير لم يحلم به الشاعر حيا أو ميتا .. ولم يكن يخطر على بال انسان بسيط مثـله .. عرف التشرد والمطاردة ولذع الثلج وعضة الجوع والقتال ..

ذلك لانه عرف مايريد .. وآمن به وتوج به أشعاره الانسانية :

« عشـق وحرية
هـــذا ما أريد
لعشقى ابذل حريتى
ولحريتى أبذل عشقى »

هكذا أجاب شاعر طفولى الملامح صغير السن له جناح النسر ولفتة العصفور ..

اسمه : بيتوفى .. شندون بيتوفى حمل البندقية بجانب القلم وكأن لحنه نذير العاصفة ونشيد الثـورة وسقط شهيدا فى سبيل وطنه حتى « لا تختفى المجد من الوجود »

كان من هؤلاء الشعراء .. الذين يؤثرون الخبز على الحلوى ويمدون للغد القادم جسور الامل والمجد .

تلك الحفنة القابضة على جمر الكلمات ..

هذا النوع المتوهج الشاهق الجسور الذين يعبرون السماء فجأة كالشهاب ويزلزلون الارض كالبركان وفى

هدوء شديد ينسلون من الحياة كأنهم أسراب الحمام المهاجرة صوب الغمام بعد أن ملأت الافق بالهديل والغناء ونشرت على الناس مظلة من أغصان الزيتون وكتبت بالدم نشيد النهاية .

ترك الشاعر الريفي « ابن القصاب الفقير » الذى لم يتعلم فى الجامعات والمدارس .. وأجاد الالمانيةوالفرنسية والانجليزية وترجم روائع الادب العالمى والمسرحى .. ترك الشاعر عمله بالمسرح وطوافه بالقرى واستجاب لنداء الشعب فعبر عن مأساته وانتشرت أشعاره فى أنحاء بلاده وهو فى العشرين بعد .

وانتظم فى سلك الثورة .. وقاد جماعات الميلشيا وخاض غمار المعارك ليصد زحف القوات النمساوية الغازية وهي تستولى على المجر فى يناير ١٨٤٩ .. فتشتعل شرارة المقاومة .. ويصبح بيتوفى هو خطيبها المقدس يقاتل ويقول الاشعار ويلهب مشاعر الجنود .

وفى يوليو من نفس العام .. تلتقى القوات المجرية بقوات روسية من جحافل الغزاة .. ليسقط الشاعر فى أحد السهول الواسعة مع الوف الشهداء .. لتضمهم مقبرة واحدة .. ويصبح الشاعر بلا قبر ولا وطن .. وتعلو كلمات نشيده المقدس :

« اذا تهاويت على الارض جثة فاقدة الحراك فلتدسنى سنابل الخيل فى عدوها الى النصر المظفر ويوم تجمعون رفاتى المحطم وتحتشدون لدفن بقايا عظامى ، وسط الموسيقى الوليدة تحت الزايات السود ضمونى الى اجساد من راحوا شهداء الحرية المقدسة .. »

وصدقت نبوءة الشاعر .. فيضيع جسده مع اجساد رفاقه من الفلاحين والفقراء ..

وتهامس الفلاحون والبسطاء : أين راح الشاعر ؟

هل ذهب ليجنى الاشعار من حدائق الخلود أم ذاب فى تراب الارض لتخضر بالزهور والاشجار ؟

وقالوا : سيعود مع الربيع ..

وعاد الشاعر مع الربيع .. فى عبير الزهور وعيون الاطفال وفى تمثاله الكبير الذى يطل على شاطىء الدانوب الازرق ..

وقد حط بى الرحال فى رحلة السفر فوق جواد الشعر .. على ضفافه الباردة وفى ظل تمثال شاعره الطفولى النبيل : بيتوفى .

هبطت الطائرة فى مطار « بودابست » بعد طواف طال أياما مابين صعود وهبوط فى مطارات العواصم .. روما ــ بلجراد .. تيرانا .. عبورا واقامة وفحصا دقيقا للهويات والجوازات والحقائب .. حتى أصابنى الدوار .. وودت لو التقط أنفاسى اللاهثة .. والتمس الهدوء والراحة فى ربوع عروس الدانوب الساحرة بودابست البيضاء .

واستغرقت اجراءات المطار أكثر من ساعة .. الحديث باللغة الهنغارية يعطل كل شىء ولا لغة أخرى بيننا حتى حضر ضابط جوازات يتحدث الانجليزية ويلخص كل هذا التعطيل فى كلمة واحدة .. لأبد أن يكون معك أكثر من ثلاثمائة دولار .. لتدخل المجر .

لاول مرة أعرف أنه لابد لكى تدخل المجر أن تثبت أن

معك أكثر من هذا المبلغ .. وفتشت جيوبى وعثرت على المبلغ واكتفوا بكلمة اعتذار .. ولم أجد أحدا فى انتظارى .. وغيرت بعض العملة لاتحدث بالتليفون .. واكتشفت أن التليفون معطل فى أوربا كما يعطـــل فى مصر .. واقتربت منى فتاة رشيقة جميلة لتنبهنى أن التليفــون معطل وقادتنى الى تليفون آخر .. وصحبتنى الحسناء الصغيرة « كوزر » والتى ذكرتنى بابنتى كانت قادمة من روسيا في رحلة علمية وهى طالبة تدرس الالكترونات بكلية الهندسة .. وركبنا الاتوبيس معا الى ميـــدان « كارل » الكبير فى وسط المدينة .. وداخت معى حتى حصلنا على تاكسى .. ونصحتنى الا أركب تاكسيا بدون عداد .. حتى لايتقاضى ضعف الاجر ..

وقلت للسائق : « فندق فلامنكا الكبير » .. وانطلق ليعبر الكوبرى الكبير الذى يشبه كوبرى قصر النيل وعليه أربعة أسود مثله . فالمهندس الذى أنشأ الاثنين واحد .. وعبره ليطوف عدة مرات .. وينزلنى أمام الفندق لاجده مكتملا بأفواج السواح التى لاتنقطع .. أخذت تاكسيا آخر الى فندق « نوفا أوتيل » الشهير .. واندفع ليعبر نفس الكوبرى الذى يربط شطرى المدينة بودا ـ وينزلنى أمـــام الفنـــدق .. لاجد لافتة كبرى تحمـــل اسم فندق آخر ..؟ وليس نوفا أوتيل !

أخذت تاكسى للمرة الثالثة .. ووجدت الســـائق يتحدث بالانجليزية .. وشكوت له ماحدث من زميليـــه فهون على الامر وقال ستجدنى أن شاء الله من الصادقين وستعرف كيف نحتفل بالسواح والزائرين .. وصدقته واستسلمت وقد هدنى التعب والجوع ، وانطلق صاحبى

لا يلوى على شيء ! عبر التاكسي نفس الكبارى .. ودار حول الجبل وطاف حول المدينة وتسكع فى الازقة القديمة حيث تناثر السكارى الفقراء بملابسهم الرثة على الارصفة ومداخل البيوت ثم يخرج الخريطة ويوقف التاكسي ويبحث فى تضاريسها عن العنوان .. وانا مستسلم له واثق فيه .. وطال الوقت وهو يحدثنى ويشرح لى معالم المدينة .. وبلغت الساعة السابعة . اربع ساعات قضيتها من المطار ودآخل التاكسي لاصل الى فندق .. وأخيرا رجوته أن يرحمنى ويضعنى فى الفندق ودار دورة واحدة فاذا نحن امام أوتيل « نوفا الجديد » وأخرج السائق ورقة وأخذ يسجل الوقت ويطرح أرقاما من أرقام .. فهو تاكسى خدمات ليطالبنى بعشرة دولارات وقبله دفعت نفس المبلغ .. لاصبح ضحية سائقى تاكسى المجر .. كما يفعل سائقو تاكسى مصر مع السواح هنا .. !

كنت مستعدا لدفع مايطلب فى سبيل غرفة دافئة ووجبة ساخنة .. وقلت لنفسى : هنا يضلك سائق التاكسى وفى روما يحاول بعضهم أن يبيع لك ساعة « أوميجا » ذهبية وعلنا فى ميدان المسلة الكبير ! ولعنت مرافقى المجوز « بروفسور موزافور » . مرافقى القديم الذى لم يخطر أحدا باستقبالى ولم يحجز لى العودة .. ولم يكن له من عمل سوى الاكل على مائدتى وسرقة السجائر وامضاء الفواتير نيابة عنى ..

ووضعت حقائبى .. ولذت بالحجرة الفاخرة ولاحقنى عامل الاسانسير الانيق طالبا « البقشيش » مفضلا ان يكون بالدولار !..

وبالرغم من رخص الاسعار هنا نسبيا فكلهم يعشقون الدولار فالفندق الفخم الذى يفوق فخامة الهيلتون يكلفك خمسين دولارا فى الليلة الواحدة ..

والسواح يملأون كل أركان الفندق .. لأمكان فى المطعم ولا فى الملهى الليلى وكرنفال أزياء ووجوه شبه العراة من الجنسين ! نزلت اتسكع فى المدينة وقد زحف الليـل وهبت موجة باردة مفاجأة مالبثت أن توغلت بعـد أن انحدرت من جليد الجبل وكاد الدم يتجمد فى العروق فأويت الى مطعم صغير كادت صاحبته الحسناء تغلـق أبوابه فرق قلبها لى وأشعلت الموقد وقلبت بعض الشطائر وناولتنى بعض الاشربة المجرية القوية فتدفأت قليلا .. وغادرت المكان وعدت الى حجرتى مرة أخرى .. لاتأمل من شرفتها الزجاجية الكبيرة .. منظر الجبل والبيوت المعلقة فيه وقد تلألأت الاضواء كأنها النجوم فى سـماء أخرى من الخضرة والاشجار .

بودابست .. جميلة خضراء بيضاء عتيقة معلقة فوق الجبال .. مشطورة نصفين على شاطىء نهرها الكبير .

الحدائق المعلقة فوق الجبال جدائل الخضرة المتدلية فوق الصخور قنوات الماء التى تشق طريقها بين الاحجار والكنائس القديمة هضبة القدس « جلبرت » الذى رماه أعداؤه من فوق الجبل فصنع له شعبه تمثالا ضخما فوق قمة الجبل كأنه تمثال الحرية رمزا لتخليد قديسهم وقد التفت الخضرة وتناثرت النوافير تحت أقدامه ..

جزيرة « مرجليت » على شاطىء الدانوب من الجهة الاخرى .. قديسة أخرى خلدوها لانه عشقت وانتحرت

فى سبيل حبها . ومبنى البرلمان العتيق والقلعة الشهيرة احدى المتاحف النادرة .

وغير بعيد من الجزيرة يرتفع تمثال صديقى الشاعر الطفولى بيتوفى الذى جلست بين يديه وقد انساب امامنا نهر الدانوب العتيق واسع رقراق الخرير دفاق الموج ..

ولكن ليس فى فحولة النيل العظيم .. جد الانهار جميعا رغم افتقاده الخرير والتدفق - والهدير ..

واسترخيت فى ظل التمثال والنهر .. وكأنى فى ضيافة صديق - عزيز من الشعراء يمسح عنى عناء الرحلة وتفصل بيننا المسافات ولكن توحدنا لغة مشتركة نتحدث بها بلا ترجمان هى لغة الشعر ..

ويضمنا سقف بيت واحد هو مأوى المسافرين والغرباء .. وهو الشعر لانه عند قول بيتوفى :

« هو مسكن مفتوح على مصراعيه
للسعداء والاشقياء على السواء
انه معبد مقدس يؤمه جميع الذين
ينشدون الصلاة
حتى ولو كانوا حفاة ! »

فهرس

صفحة

تقديم ٧
سوق عكاظ بين الدانوب وجبال الألب الخضراء ١١
سنجور : عصفور أفريقيا الرقيق ٢٤
الطفل ذو اللحية البيضاء ٣٣
وجه صديقى القديم فى مهد الاغريق العظيم ٤٠
لقاء تحت الراية الحجرية الشمطاء ٥٠
رودان عاشق السين النبيل ، والسجينى .. عاشق
النيل الأصيل ٦٠
باريس والمدن الجميلة كالنساء ٦٧
كل الطرق تؤدى الى لندن .. من روما . فياقلبى لا تحزن ! ٧٢
غريب فى حى سوهو ! ٨٢
الشعراء .. أصدقاء الشمس القدامى ٨٨
ساعات تحت المطر فى سبيل جويا وبيكاسو ٩٤
عمتنا النخلة العربية .. أم النخلات الأوربية ٩٨
الزهراء . "فرساى" العرب وزهرة لكليل جبل العروس ١٠٥
عندما تمطر أوتار القيثارة ١١٤
نبوءة الفتح القادم ومائدة الزبرجد الخضراء ١٢٠
مملكة القرنفلة والسقوط الأخير ١٢٧
رقصة الحزن والغضب فى بحور الشعر واللهب ١٣٧
التيمة .. وشلال الضوء الأسود ! ١٤٧
الهبوط فوق أرض المنسور ١٥٩
عشق وحرية على ضفاف الدانوب ١٦٧

كتاب الهلال يقدم

مصر فى عيون أبنائها :

ثلثا قرن من الزمان

مذكرات : محمد عبد الله عنان

يصدر : ٥ يناير ١٩٨٨

رقم الايداع : ٨٢٧٤ / ٨٧
الترقيم الدولي : ٣ - ٣٣٠ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ
الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

اسعار بيع للعدد العادى فئة ٧٥ قرشا :

سوريا ١٨٠٠ ق . س ، لبنان ٣٥٠ ليرة ، الأردن ٥٠٠ فلس ، الكويت ٤٠٠ فلس ، العراق ١٦٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، السودان ٢٥٠ ق . سودانيا ، البحرين ٢٠٠ فلس ، الدوحة ٨ ريالات ، دبى ٨ دراهم ، ابو ظبى ٨ دراهم ، مسقط ٧٥٠ بيسة ، تونس ١٦٠٠ مليم ، المغرب ١٥٠٠ فرنك ، غزه والضفة ٧٥ سنتا ، اليمن الشمالية ١٣ ريالا ، عدن ١٤٤ سنتا ، الصومال ١٣٠ بنيا ، لاجوس ١٢٠ بنيا ، داكار ١٠٠٠ فرنك ، لندن ١٥٠ سنتا ، اثينا ٢٠٠ دراخمة ، كندا ٥٠٠ سنت ، البرازيل ٦٠٠ سنت ، استراليا ٦٠٠ سنت ، ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة .

● فى الأساطير : أن الله خلق الجواد من خفقة ريح جنوبية نثرها فوق الأرض وكان لونها أصهب داكنا فجاء لون الجواد كذلك وكان الجواد عربيا فقيل له بعد تمام خلقه : « طر بغير جناح وكن سيد جميع الحيوانات »

وهكذا انطلق جواد الشعر يطير بغير جناح هنا وهناك ويدق بسنابكه هام النجوم والأفلاك ينهب المسافات نهبا طوال عشر سنوات متتاليات أطعمه قطع السكر وأسقيه المسك والعنبر وامسح عرق رحلته بقميص الشعر وعباءة الجليد والمطر ! ولا غرابة ان يكابد عشق السفر كبار أهل الشعر والفن رحالة الشرق والغرب أمثال : فولتير وروسو واندريه جيد ولامرتين وبايرون وكلوديل وريتان وابن بطوطة وابن جبير وابن ماجد الملاح .

واذا كانت الذُّ الكتابات هى كتابة الرحلات فما أفدح الثمن الذى يقتضى كاتبها تعب العيون والأقدام قبل مَضض الأقلام وخفقة الوداع والسلام وكأنك مُودع بعض نفسك فى كل رحلة .

وحسبك .. وأنت تطأ أرض الوطن احساسك بأن لنقلة قدميك فوق ترابه لطف الشفاه عند حلاوة التقبيل وانخطافة القلوب فى طلاوة الترتيل !

ولولا السفر على جواد الشعر ماكانت تلك القطوف فى حدائق الغربة وصحارى التجوال .

